

قَصَّةُ آيَاتِنَا

الحَسَانِي الإِدْرِيْسِي

عَبْدُ السَّلَامِ مُحَمَّدُ الشَّافِعِي

مُؤَسَّسَةُ الإِيمَانِ

بَيْرُوت - لُبْنَان

بحقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الافتداء

إلى كل من عَشِقَ كِتَابَ اللَّهِ فَتَدَبَّرَهُ .
إلى كل من سَارَ عَلَى نَهْجِ قُرْآنِ اللَّهِ وَتَخَلَّقَ بِخُلُقِهِ .
إلى الباحثين عن الحقيقة التي حار في لُبِّهَا الكشِيرُونَ .
إلى كل من نَشِدُ سَعَادَةَ دُنْيَاهُ ، وَعَزَا سِحْيَاةَ فِي دَارِ الْإِخْلُودِ .

أَهْدِي

كِتَابِي هَذَا الَّذِي حَاوَلْتُ فِيهِ إِبْرَازَ بَعْضِ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي (قِصَّةِ آيَةِ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التمهيد للكتاب

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ الحمد لله الذي بدأ خلقه بالحمد فقال:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ

[الانعام : ١]

والذي ختم بالحمد أمره

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ

[القصص : ٧٠]

وإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

والصلاة والسلام على نبي الرحمة - محمد ﷺ - الذي أنزل عليه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وهو القائل له ربه : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ (ص ٢٩) :

صلوات الله وسلامه وتحياته وبركاته عليه ، وعلى آله الطاهرين المطهرين وأصحابه الأئمة الهادين ، ومن اهتدى بهديه ، وسار على نهجه إلى يوم الدين . وبعد : فقد نزل القرآن الكريم على رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - مُنْجِئاً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، حسب ما اقتضته ظروف ومناسبات خاصة .

وليس هذا متعارضاً مع ما يفهم من نزوله مرة أخرى ، في ليلة واحدة نوه الله عز وجل بقدرها وأشاد بمنزلتها ، بقوله تعالى في سورة الدخان :

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبْرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ [الدخان : ٣]

وقد علم أنها ليلة القدر من قوله عز وجل في سورة القدر :

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ [القدر : ١ - ٣]

إذ أن نزوله - والله أعلم - تم في هذه الليلة المباركة من عالم الغيب حيث كان مسطراً في اللوح المحفوظ، إلى جبريل ملك الوحي . وهذا ما يؤيده قوله تعالى في سورة البروج :

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ [البروج : ٢١ - ٢٢]

وقوله تعالى في سورة الواقعة :

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة : ٧٧ - ٨٠]

ومن هنا ، كان الإجماع معقوداً على أن القرآن الكريم، قد استمر نزول الوحي الكريم به ، على النبي - صلوات الله وسلامه عليه - ليحفظ في صدور المؤمنين، لفترة طويلة ، كما يفهم من قوله تعالى :

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٧﴾

بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾

[الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥]

هذا، وقد وردت أقوال كثيرة في بيان أول ما نزل من القرآن الكريم، على قلب سيدنا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ولعل أرجحها ما روته السيدة عائشة - أم المؤمنين - رضي الله عنها بقولها : « إن أول ما نزل من القرآن الكريم » .

أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾

[العلق : ١]

ولا يعارضه ما ذكره عكرمة ، والحسن ، رضي الله عنها ، بقولها : « أول ما نزل من القرآن الكريم ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ذلك ؛ لأنه أول ما نزل من القرآن الكريم جملة ، وأول سورة نزلت بأكملها هي سورة العلق .

والبعض يرى أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو سورة المدثر ، استناداً إلى حديث صحيح رواه يحيى بن أبي كثير ، بقوله :

سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن ، أي القرآن أنزل قبل ؟ قال :

يأيها المدثر ، قلت : أو اقرأ باسم ربك ؟ قال : سألت جابر بن عبد الله الأنصاري : أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : يأيها المدثر ، قال : قلت أو اقرأ باسم ربك ؟ قال جابر : أحدثكم بما حدثنا به رسول الله - ﷺ - قال :

« إنني جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جواربي ، نزلت ، فاستبطنت بطن الوادي ، فتوديت ، فنظرت أمامي وخلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ثم نظرت إلى السماء ، فإذا هو على العرش ، يعني جبريل ، فأخذتني رجفة ، فأمرتهم فدثروني ، ثم صبوا علي الماء ، فأنزل الله عليّ :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾

[المدثر : ١ - ٢]

ولا أرى تعارضاً بين هذه الرواية ورواية السيدة عائشة - رضي الله عنها - التي وردت آنفاً ، ذلك ؛ لأن جابراً سمع من النبي - ﷺ - آخر الحديث، ولم يسمع أوله - فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل ، وليس كذلك .

ويدلّ على ذلك ، ما رواه مُعَمَّر عن الزهري ، قال : أخبرني أبو سلمة ، عبدُ جابر ، قال : سمعت النبي - ﷺ - وهو يحدثني عن قوة الوحي ، فقال في حديثه : (فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، فامتألت منه رُعباً ، فرجعت ، فقلت : زملوني ، زملوني ، فذرني ، أو قال : فزملوني ، فأنزل الله عز وجل : «يأياها المدثر»

ويفهم من هذا ، أن الوحي كان قد فتر بعد نزول : «اقرأ باسم ربك» ثم نزل : «يأياها المدثر»

أما آخر سورة نزلت على رسول الله - ﷺ - فهي سورة (المؤمنون) وقيل سورة (العنكبوت) :

وفي المدينة المنورة كانت أول سورة مدنية نزلت على رسول الله - ﷺ - هي قوله تعالى :

وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ
[البقرة: ٢٨]

إذ عاش النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بعدها تسع ليالٍ ، ثم لحق بالرفيق الأعلى .

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله : « إن آخر آية نزلت على رسول الله - ﷺ - هي قوله تعالى :

لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

[التوبة : ١٢٨].

وأول يوم نزل فيه القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ، هو يوم الاثنين ، فقد حدث قتادة ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت صوم يوم الاثنين ؟ قال : «لقد نزل فيه عليّ القرآن» .

وأول شهر أنزل فيه القرآن ، هو شهر رمضان ، قال تعالى :

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ

[البقرة : ١٨]

هذا ؛ ولما كان لأكثر آيات القرآن الكريم وسوره سبب للنزول ، أو قصة ، أو مناسبة ، فإن موضوع مؤلفي هذا (قصة آية) - يتضمن بياناً تفصيلاً لسبب النزول أو قصته أو مناسبه .

إذ لا يخفى أن لبيان ذلك فوائد ، أبرزها الوقوف على المعنى المقصود ، أو إزالة الإشكال .

إذ أن معرفة السبب ، أو الوقوف على المناسبة يوضح تفسير الآية . يقول ابن دقيق العيد :

(بيان سبب النزول طريق قويّ إلى فهم معاني القرآن الكريم).

كما يقول العلامة ابن تيمية :

(معرفة سبب النزول يعين على فهم النصّ القرآني ؛ إذ لا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلاّ بالرواية والسماع ، ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها) .

كما يقول الواحدي : وهو ممن يعتمد عليهم في هذا المجال ، ما يؤيد قول ابن تيمية .

وسيتضح للقارئ الكريم ، كيف أن بعض الصحابة ، عدلوا عن فهم معاني القرآن الكريم حين وصلت إلى أسماعهم قصة النزول ، إذ أنّ معرفة

السبب ، يزيل كثيراً من الإشكال، والخلط في الفهم .

وقد آثرت التركيز على أرجح الروايات ، مع ذكر كل ما صحَّ سنَّده من الروايات التي حصلت عليها ، المبيّنة لسبب النزول ، علماً أن من المقطوع به أصولياً ، أن السبب قد يتعدد ، والنازل واحد .

كما حرصت - بتوفيق الله وعونه - على تفسير الآية النازلة بسبب، تفسيراً يتمشى وروح العصر، ليجد القارئ فيها علاجاً لواقعنا ، بعد أن بعدنا عن مصدر الشفاء، ونبع السعادة، عن قرآننا .

وإنني إذ أقدم هذا الجهد المتواضع إلى المطبعة ، لئيشر على إخواني المسلمين ، المتعطشين إلى المعرفة، الحريصين على الوقوف بوعي على علوم كتابهم الخالد - القرآن الكريم- فإنما هي استجابة لرغبات ملحة من أصدقائي الأوفياء المخلصين، ومن تابعوا سماع حلقات هذا الموضوع في - برنامج قصة آية - الذي تفضلت إذاعة القرآن الكريم بالكويت ، بإذاعته يومياً على مدى أربعة شهور متوالية ولا يفوتني أن أذكر الفضل لذويه ممن دفعوني إلى مواصلته وأعانوني على بثه ، وأخصّ السادة الأساتذة: خليل إبراهيم رئيس إذاعة القرآن الكريم، وعبد العزيز حسن مدير التنسيق، وأحمد السيد عبد الصمد، ومحمد مكرم السعدني. كما أشكر من أعمامي السادة المستمعين بالكويت والسعودية والبحرين والإمارات الذين طوّقوا عنقي برسائلهم التي تحمل تقديراً وثناءً لا أستحقها .

وإنني لأضرع إلى الله القدير أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه مُبتغياً به نفع المسلمين .

وهو ولي التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

المؤلف

عبد السلام محمود الشافعي

الموجه الفني للتربية الإسلامية

وزارة التربية - الكويت

غرة رجب عام ١٤٠١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب :

يقول الحق جلّ وعلا في محكم التنزيل ، لنبية محمد - صلوات الله وسلامه عليه - في معرض الامتان عليه :

وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

[الحجر : ٨٧]

يعني الفاتحة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾
[الفاتحة : ١]

التفسير :

يرى أكثر المفسرين ، أن سورة الفاتحة مكيّة ، وهي من أوائل التنزيل الحكيم .

فقد روي عن أبي مسيرة ، أن رسول الله ﷺ ، كان إذا برز ، سمع منادياً يناديه : يا محمد ، فإذا سمع الصوت ، انطلق هارباً ، فلما علم بذلك (ورقة بن نوفل) قال له : إذا سمعت الصوت ، فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ، قال : فلما برز ، سمع النداء ، أيا محمد ، فقال : لبيك ، قال : قل أشهد أن لا إله إلا

الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قال: قل الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، حتى فرغ من فاتحة الكتاب . أما أمير المؤمنين - علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه ، فيقول :

(أنزلت فاتحة الكتاب بمكة ، من كنز تحت العرش).

يؤيده ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال :

قام النبي ﷺ بمكة ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . فقالت قريش : رضى الله فاك ، وهذا ما استند إليه من قال : إنها مكية . أما من قال : إنها مدنية كمجاهد رحمه الله - فقد احتج عليه ، بأن رسول الله - ﷺ - أقام بمكة بضع عشرة سنة يُصلي ، ولا يُقبل القول بأن صلاته ، كانت بغير فاتحة الكتاب .

هذا أرجح ما قيل في سبب نزول أم الكتاب (الفاتحة).

أما فضل تلاوتها ، فقد ورد في ذكره كثير من الآثار ، منها ما رواه أبو هريرة ، عن رسول الله ﷺ حين قرأ عليه أبي بن كعب فاتحة الكتاب ، فقال : (والذي نفسي بيده ، ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، إنها هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته) . ويكفيها فضلاً ، أن الصلاة لا تتم إلا بها ، لقول رسول الله - ﷺ - (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب).

إن تفضيل بعض القرآن على بعض ، لا يوهم بأنه يفيد نقص المفضل عليه ، فكل كلام الله فاضل عظيم .

هذا وقد اختلف المفسرون حول البسملة ، أهى آية من كل سورة ؟ أم هي آية من سورة الفاتحة ، تفتتح بها كل سورة ؟

والأرجح أنها آية من سورة الفاتحة ، وبها تتم آياتها سبعاً ، وبهن من الله على نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بقوله تعالى :

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

[الحجر : ٨٧]

ذلك ؛ لأنه يثني بها ، وتكرر في الصلاة .

والسرُّ في بدء سورة الفاتحة على هذا الرأي باسم الله ، إنما هو التزام النبي ﷺ بالأدب الإلهي عندما أنزل عليه أول ما نزل به الوحي : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾

فباسم الله يكون كل ابتداء ، مصداقاً لقول النبي - ﷺ - : (كلُّ أمر ذي بال ، لا يُبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتَر) أي ناقص البركة .

إن في وصفه تعالى بالرحمن الرحيم ، استغراق لكل معاني الرحمة ، فهو وحده المختصُّ بصفة الرحمن ، وإن جاز أن يُوصف أحد من خلقه بصفة الرحيم ، فلا يتأتى في وصف غيره سبحانه بصفة الرحمن ، فضلاً عن وصفه بهما معاً .

أما الاستعاذة بالله منذ البدء في القراءة فهي مستحبة لقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ فالأمر هنا للاستحباب .

قال ابن سيرين : إذا تعوَّذ المسلم في عمره مرة فقد كفى في إسقاط الوجوب ، وإن احتجَّ عطاء - رحمه الله - بظاهر الآية « فاستعذ بالله » فرأى أنه أمر واجب بظاهره ، ولمواظبته - ﷺ - عليها ، ولأنها تدرأ الشيطان ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وقال بعضهم : كانت واجبة على النبي - ﷺ - دون أمته ، ولا أرى له سنداً ، فما كُلف به رسول الله ﷺ كان تكليفاً لأُمَّته أيضاً ، باستثناء ما اختص به ، أما الإمام مالك ، فيرى أن المصلي لا يتعوَّذ في المكتوبة ويتعوَّذ لقيام رمضان في أول ليلة منه .

والشافعي - رضي الله عنه - يرى أن يجهر بالتعوذ ، وإن أسرَّ فلا يضر .

وبعد ، فإن في الاستعاذة التجاء إلى الله من كل شرٍّ ؛ فالعيادة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب الخير .

كما قال المتنبي :

ومن أعوذ به مما أحاذره

يا من ألوذ به فيما أوّمله

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهضون عظماً أنت جابره
جاء في ابن كثير قوله :

«ومن لطائف الاستعاذة ، أنها طهارة للضم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث ، كما أنها تطيب له ، وهي أيضاً لتلاوة كلام الله ، وهي استعانة بالله ، واعتراف له بالقدرة كما أنها للعبد اعتراف بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو الباطني ، الذي لا يقدر على دفعه ومنعه إلا الله الذي خلقه ، ولا يقبل مُصانعةً ، ولا يُدارى بالإحسان ، بخلاف العدو من نوع الإنسان .

إنه إبليس العدو اللدود للإنسان ، كما دلت على ذلك آيات من القرآن الكريم كقوله تعالى في سورة الإسراء :

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكُنِيَ بِرَبِّكَ وَاكِيلاً ﴿٦٥﴾

[الإسراء : ٦٥]

هذا ، وقد بدأنا بفاتحة الكتاب ، وإن لم يرد في نزولها سبب تيمناً بها ، وإتماماً للفائدة في البدء بها اتساقاً مع ذكر الآيات ذوات الأسباب في نزولها ، إذ سنتناولها بفضل الله مرتبة حسب ورود ذكرها في كتاب الله .

مع سورة الفاتحة :

حين يُردّد المؤمن في صلاته سورة الفاتحة ، فإنما يستشعر معاني سامية ، إنه حين يتلو قوله تعالى : « الحمد لك رب العالمين » .
فإنه يؤمن إيماناً راسخاً ، بأن ربنا جلّ علاه ، المختصّ به بالربوبية المطلقة ، الربوبية التي تتعلق بها قلوب المؤمنين ، كما يعترف بأن الحمد الخالص من كل عرض هو لله المنعم وحده ، الذي تدين له جميع مخلوقاته بالعبودية ، وتذل له الهامات ، وتخضع لجلاله القلوب .

رُوي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ، أن رسول الله - ﷺ - قال : «إن عبداً من عباد الله ، قال : يارب ، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ،

وعظيم سلطانك ، فعُضِّل بها الملكان ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى الله ، فقالا : يا رب ، إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها ، قال الله : وهو أعلم بما قال عبده ، وما الذي قال عبدي ؟ قالا : يا رب ، إنه قال : يا رب ، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتبها كما قال عبدي حتى يلتقاني ، وأجزيه بها .

وحين يقول المؤمن : «مالك يوم الدين» فإنه إنما يقرّر حقيقة من حقائق العقيدة الإسلامية . إنها الإيمان بيوم القيامة ، وهو أحد أركان الإيمان وبه يكون عمله خالصاً لله ؛ أملاً في حسن جزائه ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت او اكتسبت .

وحين يتلو المؤمن : «إياك نعبد وإياك نستعين» فإنه يقصر العبودية الحقة على الله تعالى ، فلا عبودية إلا له ، والا استعانة إلا به . وبهذه العبودية ، وتلك الاستعانة يجد المؤمن شرفه وعزته ، إذ كل عبودية لغير الله ذلة ومهانة .

وبها يتحرّر المؤمن من كل استعباد في الأرض ، التماساً لعزّ العبودية لخالق الأرض والسماء ، حين يلقي بزمام أمره إلى معبوده ، الذي شرع له طرق الخير والسعادة .

وحين يتلو المؤمن قول الله : «اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين» .

فإنه إنما يتوجه بقلبه ، وجميع مشاعره إلى الله مخلصاً ؛ إلى ربه الذي يعينه على الهداية ، وهي ثمرة الاعتقاد السليم ؛ لأنه وحده الذي يُعبد ، وهو وحده المعين على العبادة ، وهو وحده مُلهم خلقه السعي في الأرض ، فكلما استقام على طريق العبادة ، كان سعيه في حياته قويمًا ، لأنه التزم الاستقامة على الصراط ، صراط الله ، الذي لا يميل عن مسلكه ، لأنه أقوم السبل ، ولن يضل من اتخذ منهجه ومسلكه ، ففي دروبه كل السعادة والاطمئنان ، لأنه طريق معتدل ، مُمهّد ، آمن ، لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ، ولا التواء .

طريق لا يسلكها إلا العارفون المهتدون ، الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق إلى الهدى .

ولقد نأى الذين بأؤوا بغضب الله ، وحادوا عن الجادة ، وبعدوا عن النهج القويم ، كما افتقده من ضلّ عن الهدى ، وعمي عن الوصول إليه ، ذلك لأنه صراط السعداء المهتدين الواصلين .

وبعد : فهذه السورة الكريمة ، التي لا تصحّ الصلاة إلا بها ، فد جمعت كل القواعد الأصيلة للدين ، من ثناء على الله ، ودعاء له سبحانه .

وقد ورد في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ، ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل . فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني لعبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : أثني عليّ عبدي ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله : مجّدي عبدي ، وإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين . قال : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل .
أما التأمين عقب سورة الفاتحة ، فيستحب لمن قرأها أن يقول بعدها : آمين ، أي : اللهم استجب .

ودليل استحبابه ، ما رواه الترمذي عن وائل بن حجر قال : سمعت النبي - ﷺ - قرأ : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقال : آمين مدّها صوته .

يؤيده ما رواه أبو هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « إذا أمّن الإمام فأمنوا ؛ فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .

كما يروي ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما حسدكم اليهود على شيء ، ما حسدتكم على السلام والتأمين »

وفي حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل : «ومثل من لا يقول آمين ، كمثل رجل غزا مع قوم ، فاقترعوا ، فخرجت سهامهم ، ولم يخرج سهمه ، فقال : لم يخرج سهمي ، فقيل : إنك لم تقل : آمين .

هذا ما يتصل بفاتحة الكتاب من أقوال ، وستتناول بتوفيق الله بترتيب المصحف الكريم الآيات التي لها أسباب نزول . والله الموفق والمعين .

مع سورة البقرة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

[البقرة : ١٤ - ١٥]

القصة :

قصة نزولها يرويها ابن عباس رضي الله عنها بقوله : «نزلت هذه الآية في حق عبدالله بن أبي وأصحابه ، ذلك ؛ لأنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ - فقال عبدالله بن أبي : انظروا ، كيف أردُّ عنكم هؤلاء السفهاء ؟ فذهب ، فأخذ بيد أبي بكر وقال : مرحباً بالصدِّيق ، سيِّد بني تميم ، وشيخ الإسلام ، وثاني رسول الله - ﷺ - في الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد عليّ - كرم الله وجهه - فقال : مرحباً بابن عم رسول الله ، وختنه سيِّد بني هاشم بعد رسول الله ، ثم افترقوا ، فقال عبدالله لأصحابه : كيف رأيتموني ؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا ما فعلت ، فأثنوا عليه خيراً ، فلما رجع المسلمون إلى النبيّ ﷺ وأخبروه بذلك ، نزلت الآية ، ومن هنا ، تتضح

الصورة ، صورة صراع المنافقين مع المسلمين ولكنه صراع خفيّ، سلاحهم فيه الدّس والخديعة، فهم بشتيّ الحيل يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفسهم وما يشعرون ، أسلوبهم في صراعهم الزيف من القول، والظاهر من السوء .

فهم يعايشون المؤمنين ، ويندسون بين صفوفهم ، يتظاهرون بالإيمان ولكنهم في حقيقتهم كاذبون ، إنهم يخفون بين جوانحهم مرضاً : ﴿ في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ﴾ يحاولون بخداعهم إشعار المسلمين بأنهم منهم وعلى دينهم، ولكنهم إذا انفردوا بشياطينهم من اليهود ، تراهم مستهزئين يسخرون من المؤمنين - ولكن،

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ [البقرة : ١٥]

فهم في غيهم يتخبطون، وعن الحق ضالون .
لقد زعم بعض المتعالين من رؤسائهم ، أمثال عبدالله بن أبي ، أنهم مرتفعون على سائر الناس، وأن المؤمنين دونهم ، فوصفهم بالسفاهة، ولكنهم في حقيقة الأمر هم السفهاء، ولكن لا يعلمون .

إنهم يستمدّون عداؤهم الخفيّ للمؤمنين من أسيادهم اليهود، الذين استعملوهم مطايا ذليلة لهم ، واتخذوهم أذناً لهم طائعين تابعين ، يتلقون عنهم الكراهية والعداء للمسلمين، فهم بين المسلمين يعايشون ، يتظاهرون لهم بالودّ ويدعون أنهم منهم حتى يخدعوا بهم، ويتلقوا الطعنة من حيث يظنون السلامة .

ولكن القرآن الكريم تتبعهم، وكشف ما استتر من أمرهم ، وعراهم تماماً للمؤمنين، حتى يطهروا صفوفهم من دنسهم ، فشنّ عليهم القرآن حملات عنيفة، بعد أن ضجّ المسلمون من مكائدهم ، وأن الأوان لأن ينكشف عنهم الغطاء - ليبدو للمجتمع الإسلامي على حقيقتهم المفضوحة . إن العداء الذي وُجّه إلى الإسلام منذ ظهر بالجزيرة، كان مصدره اليهود الذين عرفوا أنه الحق ،

ولكنهم خشوا على سلطانهم أن يسلب ، وسيطرتهم أن تنتقص ، وعلى ما يجيبه أحبارهم من أتباعهم أن يضيع ، ولما لم يجروا على إظهار حقدهم الدفين ، جُبناً منهم ورُعباً ، فقد اتخذوا من المنافقين مخالب لهم وأنياباً ، وهم من خلف ستورهم يحركونهم كالدمى .

وذلك ؛ لأن اليهود قوم جبلوا على الجبن ، وأتسموا بالذل ، فوجدوا في المنافقين مطايا ذليلة لهم ، ينفثون فيهم وبهم سموم العداة لهذا الدين الذي هددهم بسلب شرفهم ومنزلتهم ، بعد أن وُحِدَ الصفّ بين الأوس والخزرج ، وبعد أن فقدوا أملاً كبيراً كان يراودهم ، في أن تكون الرسالة الخاتمة فيهم . لقد عزلتهم الدعوة الإسلامية عن المجتمع ، فلم تعد لهم به منزلة أو مكانة ، وصدق الله القائل فيهم :

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ
مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكَ وَاللَّهُ بِخَيْرٍ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

[البقرة : ١٠٥]

لقد حمل القرآن الكريم على المنافقين حملة شعواء ، بعد أن ساق صفات المؤمنين ، ليرز الفرق بين الطبيعتين المتناقضتين .

فقد أظهر فضل المؤمنين حين ضمّهم إلى صفّه ، واعتبر عدوهم عدواً له ، بينما كشف طبائع المنافقين المخادعين ، الذين لم يجاربوا بكيدهم وخبثهم المؤمنين فحسب ، بل حاربوا الله حين حاربوا أوليائه - ذلك ، لأن في قلوبهم حقداً ، وفي صدورهم مرضاً ، وفي نفوسهم آفة متأصلة وهم مع حقدهم ومرضهم وكيدهم وعللهم مفسدون . وهم في الأرض وبياء خطيرٌ لقد تبجحوا حين ادعوا أنهم - وهم المفسدون في الأرض - مصلحون .

ونحن نسمع وصف القرآن الكريم لهم في سورة البقرة بالفساد ، في قوله

تعالى :

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَسْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة : ١٢]

وبالسفاهة ، في قوله تعالى :

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ [البقرة : ١٣]

وبالحقارة والضلالة ، في قوله تعالى :

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تُّجْرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

[البقرة : ١٥ - ١٦].

إن الارتباط قوي بين اليهود الخانقين ، والمنافقين المخادعين ، فهم مطيتهم
ووسيلتهم ، وهم بلؤمهم يحاربون جماعة المسلمين متسترين ، ونسوا أن الله دائماً
يدافع عن المؤمنين .

فالمعركة الدائرة بين الإيمان وأعدائه مستمرة ، ولكنها غير متكافئة فالإيمان
دائماً هو المنتصر ، وأهله هم الأعلون ما داموا مؤمنين ولن تسقط له راية ، مهما
اعترض مسيرته المعوقون - فهو بأهله ولا شك إلى الغاية واصلون ،

فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۗ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠٩﴾

[البقرة : ٨ - ٩]

القصة :

قصة نزلها يرويها عكرمة عن عطاء بقوله :

« أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وأربع آيات من أولها نزلت في شأن المؤمنين ، وتليها آيتان نزلتا في شأن الكافرين ثم ثلاث عشرة آية بعدها نزلت في شأن المنافقين . »

وبذلك كانت بداية السورة الكريمة ، سورة البقرة وصفاً لهذه الطوائف الثلاث التي كانت تمثل المجتمع المدني الذي واجه الدعوة الإسلامية في أول عهدها بالمدينة فضلاً عن ذكر اليهود، وأحوالهم بعد هذه الآيات .

ونحن حين نستعرض صفات هذه الطوائف الثلاث، نجد صراعاً عنيفاً بين الدعوة إلى الإيمان بكتاب الله ، المنزل على عبده ، محمد ﷺ وبين المشركين الذين عجزوا عن أن يأتوا بمثله ، فكان هدى للمتقين المؤمنين وقذياً في عيون المشركين الحانقين .

ولقد نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كما قال الضحّاك ، في أبي جهل وخمسة من أهل بيته ، أما الكلبي فيرى أنها نزلت في اليهود .

ومن هنا نعلم ، أن المجتمع البشري في المدينة ، كان يتكون مع بداية الدعوة الإسلامية، من نماذج بشرية ، متباينة المنازع والميول والمشارب . وأن المتدبر لكتاب الله -ليجد آية واحدة من سورة البقرة، هي آيتنا الكريمة هذه ، قد رسمت معالم هذا المجتمع بوضوح ، وحددت صفات أفراده المميزة ، حتى لكأن كلاً منهم قد وضعت على ظهره لافتة ، هي هويته ، المعرفة به .

فاليهود مثلاً ، معروفون بعدائهم للإسلام ، وحقدهم على المسلمين ونبئهم، وإن دفعهم جنبهم إلى كتمانهم وإخفائهم إلى حين، فإن قلوبهم به تفيض وصدق الله : ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر﴾ . والنموذج الثاني من نماذج هذا المجتمع يمثل في المنافقين، الذين يمثلون الخطر

الأكبر على المسلمين ودعوتهم ، ذلك ؛ لأنهم بعدائهم مستترون وفي مجتمع المسلمين منبثون ، وهم يوهمونهم بأنهم منهم ومعهم .

إذ أن نفاقهم ظل مستتراً إلى أن كانت غزوة بدر الكبرى، حين أظهر الله كلمته ، وأعز جنده ونصر عبده ، وأيد المسلمين بقوة من لدنه ، وهناك ، برز عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان رأساً في المدينة وكان قومه الخزرج على وشك أن يملكوه عليهم ، ولكن الله فتح قلوبهم على نور الإسلام ، بعد بيعة العقبة ، فأسلموا ، واشتغلوا عنه بإسلامهم ، وأهملوا أمره ، فلم يتحقق له أمل ، فتلاشى شبح الملك الذي كان يحلم به ، فدفن حقه بين جنبيه ، فلم يجد أمامه منفذاً للإبقاء على بقية من كرامة إلا أن يلقي بنفسه في أحضان المسلمين إذ رأى أن لا مكانة له إلا بإسلامه . ولكن ، هل استطاع أن يتظاهر بإسلامه إلى آخر مدى ؟ لا ، إنه لم يلبث أن كشف أمره في بداية معركة أحد ، حين انسحب ومن معه ، محاولاً إلقاء الوهن في قلوب المسلمين ، كما سنعلم ذلك في موضعه .

وإذا كان القرآن الكريم قد أعجز أساطين البلاغة من العرب ، فإن سورتنا المباركة هذه ، تشير في بدايتها ، إلى أنه كتاب مؤلف من حروف لغتهم العربية ، ولكنه أعجزهم ، لأنه كتاب لا شك في دلالته على اليقين ، والهدى للمتقين ، المؤمنين بالغيب ، المقيمي الصلاة المنفقين أموالهم في سبيل الله ، فهم الذين آمنوا بما أنزله الله على محمد ، وما أنزله على الرسل من قبله ، ثم هم بعد ذلك مؤمنون بيوم القيامة ، وهذه كلها سمات المؤمنين ، الذين اهتدوا بهدى قرآنهم ، فزادهم الله هدى وأيقنوا ، فكانوا من المفلحين .

وفي مقابل هذه الصورة الإيمانية المشرقة ، نجد الوشائج مقطوعة بين غير المؤمنين من الكافرين والمنافقين ، وأمثالهما ؛ ذلك لأن الله ختم على سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، وحينئذ تساوى لديهم الإنذار وعدمه ، إذ حجبت عن الهدى قلوبهم ، فأنى لهم الاستقامة على الطريق ؟

ولنعد إلى النموذج الثالث ، الذي يمثله قوم مخادعون ، يحسبون أنهم بخبتهم يخدعون الله والمؤمنين ، إنهم المنافقون ، هؤلاء الذين تعرضت لهم آيتنا

هذه والآيات الكريمة التي تليها .

إن هؤلاء المخادعين ، يحاولون أن يخدعوا الله والمؤمنين بمظهرهم الزائف ، ولكنهم في حقيقة الأمر قد خدعوا أنفسهم فحسب .

وهؤلاء يميزهم القرآن عن المؤمنين بقوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

[البقرة : ٨ - ١٠]

حقاً إنهم مرضى القلوب ، ولن يزيدهم الله إلا مرضاً .

إن من سماتهم ، الميزة ، كما قررت الآيات اللاحقة ، الإفساد في الأرض ، فهم سوس المجتمعات ، ينخرون في صفوفها لتهوي ، مع أنهم يحسبون أنفسهم مصلحين .

ذلك ؛ لأنهم قوم مخادعون ، مزيفون ، مُوهون ، يقولون للمؤمنين : إنا معكم ، ما داموا معهم ، وإذا خلوا إلى شياطينهم من اليهود قالوا لهم : إنا معكم حقيقة ، وكلنا من المؤمنين مستهزئون .

إن هؤلاء غارقون في الطغيان ؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، فبارت تجارتهم ، وبئس ما يشترون .

إنهم المنافقون ، والنفاق من قديم داء الأمم والأفراد على السواء وهو ألوان وألوان . فالذين يجبنون عن إعلان كلمة الحق ، وصريح الرأي منافقون ، والذين يجبنون عن مواجهة الحقائق منافقون ، والذين يصفقون ويهللون لكل موكب منافقون ، بل هم مخادعون ، ولكنهم لا يخدعون إلا أنفسهم ، حين يسيئون إليها ، ويجلبون على أنفسهم سخط الله ومقته . جاء في ابن كثير :

«من صفات المنافق أنه خنع الأخلاق ، يصدق بلسانه ، ويُنكر بقلبه ، ويخالف بعمله ، يصبح على حال ، ويُمسي على غيره ، ويُمسي على حال ، ويُصبح على غيره ، ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها» .

أما علامته ، فقد وضحها رسول الله ﷺ - بقوله : (آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

[البقرة ٢٦]

القصة :

قصة نزولها، يقول فيها المفسرون :

إنه لما ضرب الله مثلين للمنافقين في القرآن الكريم ، فقال سبحانه في سورة البقرة :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

[البقرة : ١٦]

وقال تعالى :

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

[البقرة : ١٩]

قال المنافقون : إن الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال؛ فنزل قوله

تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ أَنْ يُضْرَبَ مِثْلًا مِثْلًا...﴾ إلى آخر الآية الكريمة . أما عطاء - رضي الله عنه - فيروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله : وَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ آهَةَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ :

وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

[الحج : ٧٣]

كما ذكر كيد آهة المشركين، فجعله كبيت العنكبوت، حين قال تبارك وتعالى في سورة العنكبوت :

مِثْلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

[العنكبوت : ٤١]

فقالوا : أرأيتم كيف ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد؟ أي شيء يصنع بهذا؟ قال : فأنزل الله الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ أَنْ يُضْرَبَ مِثْلًا مِثْلًا...﴾

وحول هذه الآية الكريمة يقول المرحوم سيد قطب، في الظلال :
«الله رب الصغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل، إنها معجزة الحياة، معجزة السر المعلق الذي لا يعلمه إلا الله، على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات تنوير وتبصير وتصوير .

وليس في ضرب الأمثال ما يُعاب، ولا من شأنه الاستحياء من ذكره، والله جلّت قدرته يضرها اختباراً للقلوب، وامتحاناً للنفوس .
والناس إزاء ما يضررب الله في القرآن الكريم من أمثال فريقان : مؤمنون وكافرون، فأما الذين آمنوا فيقولون : إنه الحق من ربنا، ذلك؛ لأن إيمانهم

يدفعهم إلى تلقي كل الأوامر والنواهي الإلهية ، بما يليق به سبحانه من جلال
وتسليم لحكمة يدركها ولا يدركونها، بعقولهم المحدودة إن إيمانهم ينور قلوبهم ،
ويُرقي أرواحهم ، ويفتح مداركهم إلى كل ما يصدر عن الحق جل وعلا .
أما الكافرون ، فإنهم حُجبوا عن نور الله ، فضلوا طريق الهدى ،
وتقطعت بينهم وبين ربهم حبالُ الصلّة ، فضاعوا في التيه والضلال . وحين
يسألون عن سرّ ما يضربه الله من أمثال ، فإنهم يُعربون عن ضعف مداركهم
عن إدراك الحق ، ويُدللون على أنهم لا يرجون لله وقاراً ، فتراهم يعترضون ،
ويستنكرون ، ويتشككون ، ليفسدوا على المؤمنين عقائدهم ، وما هم بمدركين .
لقد كان أبطال حملة التشكيك هذه في بداية الدعوة الإسلامية هم
المنافقون وشياطينهم اليهود . فقد تآمروا على نشر الارتباب في قلوب المؤمنين ،
كما تولّأها من قبلهم بمكة المشركون .

وجاءت الآيات الكريمة ، التي نحن بصددنا ردّاً صافعاً لهم وبيانا شافياً
لحكمة الله تعالى ، في ضربه الأمثال ، كما كانت برداً وسلاماً وسكينة وطمأنينة
لقلوب المؤمنين .

وفي تفسير آيتنا هذه يقول مجاهد - رحمه الله :

«الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ، ويعلمون أنها الحق من
ربهم ، وبها يهديهم الله»
كما يقول قتادة في قوله تعالى :

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ^ط
[البقرة : ٢٦]

أي ، يعلمون أنه كلام الرحمن ، وأنه من عند الله . ﴿وأما الذين كفروا
فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً . . ؟﴾ على حدّ قوله تعالى في سورة المدثر :

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزداد الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۗ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلبَشَرِ ﴿٣١﴾

[المدثر : ٣١]

إنها فعلاً فتنة ، ليختبر الله إيمان المؤمنين ، فيزيدهم أيماناً ، ويُبطِلُ كُفْرَ الكافرين - ﴿كذلك يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ ، ويهدي مَن يَشَاءُ﴾ حسب هدايتهم أو ضلالهم ، ووفق ما استعدوا له من تلقى الهدى أو الانغماس في بؤر الضلال ، ﴿وما يضلُّ به إلا الفاسقين﴾ . والفاسقون هنا هم أهل النفاق .

قال قتادة : «فسقوا فأضلهم الله بفسقهم» .

وبعد : فإن الأمثال التي يضربها الله تعالى في القرآن الكريم يجب على المؤمن أن يقابلها بتدبر واعتبار ، فالله تعالى يبتلي بها عباده حين يستقبلونها قبولا حسناً ، وتسليماً تاماً ، كما يقابلها الكافرون بالاستهزاء والإعراض ، ذلك ؛ لأنهم خرجوا بكفرهم كما خرج الفاسقون بفسقهم عن دائرة النور ، فبعدوا جميعاً عن ركب الهدى ، ونأوا عن طريق الإيمان فضلوا ، وهل هناك بعد الكفر والفسوق من ضلال ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

*اتَمَرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

[البقرة : ٤٤]

تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

القصة :

قصة نزولها ، يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :
إن الآية الكريمة نزلت في يهود المدينة ، فقد كان الواحد منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ، ولن بينهم وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الدين

الذي أنت عليه ، وما يأمرك به هذا الرجل . يقصد محمداً ﷺ فإن أمره حق ، فكانوا يأمرون الناس بذلك ، ولم يأتمروا به . ومن هنا نعلم : أن أحبار اليهود ، قد بين لهم كتابهم - التوراة - صفات خاتم الأنبياء محمد - ﷺ - وأمرهم فيها أمرهم باتباعه إن هم أدركوه ، فكان بهذا مبشراً ببعثته ، ولكنهم غلطوا أنفسهم وتغافلوا عن تعاليم كتابهم ، وكتبوا ما علموه من الحق ، وأنكروا ما جاء به من وصف للنبي - ﷺ - ووضح بيان بأنه نبي آخر الزمان الذي يبعث من العرب .

أخفوا ذلك عن أتباعهم ، ليُبقوا على سلطانهم وسيطرتهم عليهم وهميمنتهم على عامتهم ، ثم كان حقدهم تنفيساً عما رسخ في قلوبهم من حقد دفين على العرب بعامة أن يبعث الله فيهم نبي آخر الزمان الذي بشرت به التوراة ، وعلى المسلمين بخاصة ، الذين اتبعوه وآزروه ، وآمنوا بالنور الذي أرسل معه . إنهم كانوا يتوهمون أن الرسائل السماوية حكرٌ عليهم ، على بني إسرائيل أبناء إسحق ، فكيف يبعث محمد نبياً وهو من ولد إسماعيل ؟ لقد زعموا أن العرب لا يستحقون هذا الشرف الذي وعدوا به في توراتهم ، كما هال رهبان النصارى ما قرؤوه بعد في إنجيلهم من بُشرى ببعثه - عليه الصلاة والسلام - من العرب .

إن أمرهم لعجيب حقاً ، إنهم يناقضون أنفسهم بأنفسهم ، فكيف يُوصون من يُحبون باتباع محمد إذا أدركوا رسالته ، بينما هم يتفنون في محاربتة ، والكيد له ، وللمسلمين معه ، إنهم بذلك يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فجمعوا بذلك إلى كفرهم نفاقهم .

ونسلم القرآن الكريم ينعى على هؤلاء موقفهم الشائن المتناقض حين يأمرون غيرهم بالمعروف بينما يتركونه هم ، يُرشدون الى الخير وينأون عنه ، ويدعون الناس إلى الحق ، ويتعدون هم عن سلوك دروبه ، واتباع نوره ، ثم هم يعرفون ما أنزل الله ثم ينكرونه مُحرفين الكلم عن مواضعه .

إن خلفاءهم في مجتمعاتنا كثيرون ، من الذين يدعون إلى البر ، ولكن

سلوكهم يناقض دعوتهم ، أولئك الذين يطلقون الشعارات الإصلاحية ،
ويحملون ألوية الدعوة إلى الخير، ولكنها في حقيقتها شعارات زائفة، وألوية
مصطنعة، فكان كلامهم خادعاً زائفاً لأنه لم يصدر عن يقين وإيمان بما يدعون
إليه ، إذ أن سلوكهم يناقض أقوالهم ويكذبها .

فقد كان الأولى بهم أن يبادروا بدعوة أنفسهم وأهلهم إلى الخير قبل أن
يدعوا غيرهم، وأن يصلحوا عيوبهم قبل أن يبذلوا جهداً في إصلاح عيوب
سواهم .

فالقول إذا خلا من العقيدة التي يصدر عنها ، والفعل إذا لم يواكب القول
تصرفاً وتطبيقاً، إنما هو تضليل وتزييف وتشكيك .

لقد حذر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - من القول بلا عمل فيما
رواه أنس بن مالك بقوله : قال رسول الله - ﷺ - (مررت ليلة أسري بي على
قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال : قلت من هؤلاء؟ قالوا : خطباء
أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأمرون الناس بالبرِّ وينسون أنفسهم وهم يتلون
الكتاب ، أفلا يعقلون) كما روى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال :

(إن ناساً من أهل الجنة يطلعون على ناس من أهل النار، فيقولون : بم
دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : إننا كنا
نقول ولا نفعل) .

كما ذكر الضحّاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه جاءه رجل
فقال: يا ابن عباس : إنني أريد أن أمر بالمعروف ، وأنهاى عن المنكر قال:
أبلغت هذا؟ قال: أرجو، قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب
الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله تعالى :

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾

[البقرة : ٤٤]

أحكمت هذه؟ قال: لا ، قال: فالحرف الثاني؟ قال : قوله تعالى :

يَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبْرَ مَقْتًا

عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [الصف : ٢]

قال: أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شُعَيْب - عليه السلام - لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ بنفسك.»

وبعد، فالتبعة الملقاة على كاهل الداعية مضاعفة إن لم يكن ملتزماً بما يدعو إليه، عاملاً به ومُنْفِذاً له.

لقد وصم القرآن الكريم اليهود بالجنون، بإلغاء عقولهم، حين أمروا الناس بالمعروف، وحرموا منه أنفسهم.

وإلا، فكيف يمنح الله الخير لمن لم يجده في نفسه أصلاً، إن العقل الناضج لا يصدر عنه إلا سلوك قويم.

ولكن اليهود بعدوا عن ساحة العقل حين أخفوا الحق، وانغمسوا في مستنقع الأباطيل، وقد كان الأولى بهم، وبخاصة من عاش منهم بمدينة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - متمتعين بالأمن على أرواحهم، وعقائدهم، وأموالهم وأعراضهم في ظل الإسلام الذي غزا بنوره قلوب المؤمنين.

لقد كان الأجدر بهم، وكتابهم بين أيديهم، ينطق بالحق الأبلج الذي عموا عنه، كان أجدر بهم أن يُواكبوا ركب النور، وينتظموا في الصف المؤمن، وهم يدعون الناس إلى الإيمان، كاعتراف جزئي بالحق الذي عرفوه، ولكنهم كابروا، وغلبت عليهم شقوتهم، فانقادوا لأهوائهم، فأخفوا ما أراد الله أن يعلن ثم عادوا فأظهروه، ولكن لمن يحبون ويحرصون على نفعهم. أما هم أنفسهم، فلم يلتزموا به أصلاً، بل حاولوا طمسه، إن هذا هو شأن اليهود في

كل عصر . وفي كل مكان . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيعِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

[البقرة : ٦٢]

القصة :

قصة نزولها يرويها عبد الله بن كثير ، عن مجاهد بقوله :

«لَمَّا قَصَّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قِصَّةَ أَهْلِ الدَّيْرِ ، وَمَا كَانَ مِنْ
عِبَادَتِهِمْ ، قَالَ : هُمْ فِي النَّارِ ، قَالَ سَلْمَانُ : فَأَظْلَمْتُ عَلَيَّ الدُّنْيَا ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ
الْكَرِيمَةُ :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيعِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

[البقرة : ٦٢]

قال : فكأنما كُشف عني جبل .»

ويوضح السدي سبب نزول هذه الآية بقوله : إن الآية نزلت في أصحاب
سلمان الفارسي ، لما قدم سلمان على رسول الله - ﷺ - جعل يُخبر عن عبادة
أصحابه ، واجتهادهم وقال : يا رسول الله ، كانوا يُصلون ويصومون ، ويؤمنون
بك ، ويشهدون أنك تبعث نبياً . فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول
الله ﷺ : يا سلمان ، هم من أهل النار فأنزل الله الآية .

وفي رواية عن ابن عباس (رضي الله عنهما) جاء قوله :

إن الآية نزلت في سلمان، وكان من جنديسابور، من أشرافهم، وما بعدها من الآيات نزل في اليهود.

ومن هنا نعلم، أن المقصود بالذين آمنوا، المسلمون، وبالذين هادوا، اليهود، والنصارى، أتباع موسى وعيسى، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، الذين آمنوا برسولهم، وتمسكوا بكتبهم، وساروا على نهجهم، فكل من اتبع رسوله في أوانه خلال بعثته، فهو على هدى من ربه، ولا تعارض مطلقاً بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً، فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إذ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إن هذا إخبار عن أنه لا يُقبل من أحدٍ طريقةً ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ - بعد أن بعثه الله بما بعثه به، فأما قبل ذلك، فكل من اتبع رسوله في زمانه فهو ناج».

أما الصابئون، فقد اختلفوا في تعريفهم، فسفيان الثوري - رضي الله عنه، يقول: الصابئون، قوم بين اليهود والنصارى، ليس لهم دين، أما الضحّاك فيقول: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، والحسن يقول: هم قوم يعبدون الملائكة.

وأخيراً يقول وهب بن منبه حين سئل عنهم: هم كل من يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً.

والأرجح عندي، أنهم جماعة من المشركين قبل البعثة المحمدية اهتدوا بفطرتهم إلى عقيدة التوحيد، فعبدوا الله على ملة إبراهيم - عليه السلام - واعتزلوا عبادة الأصنام، التي انغمس فيها أقوامهم الذين قالوا عنهم: إنهم صبؤوا، ومالوا عن دين آبائهم.

وأياً كان الرأي فيهم، فهم - وقد اهتدوا إلى عقيدة التوحيد - ناجون ما داموا قد اتبعوا دين الله، الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد - ﷺ -

وعموماً، فإن الآية الكريمة تتضمن مبدأ هاماً، هو أن الإيمان بالله وباليوم

الآخر ، اذا اقترن تطبيقاً عملياً بسلوك طيب ، وعمل صالح ، كان إيماناً كاملاً ،
وبه يهتدي المؤمنون إلى طريق الحق ، وبه يعرفون ربهم حق المعرفة .

إن الله بفضله ، قد تكفل ، بأجر هؤلاء المؤمنين ، الصادقين في إيمانهم ،
إذ أن إضافة الأجر إلى الربّ جل وعلا ، دليل على عظمه وشرفه كما هو مفهوم
من قوله تعالى :

[البقرة : ٦٢]

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

ثم كان تكريم الله لهم رائعاً وعظيماً ، إذ آمنهم من الخوف ، حين يفرع
الناس ، طمأنينة لقلوبهم ، وجزاء لهم على حسن أعمالهم ، وصدق إيمانهم ،
فقال جل وعلا في تنمة الآية الكريمة وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة :
١١٢]

كما وعدهم بالحسنى ، وبشرهم بحسن العاقبة ، وببهجة اللقاء ، وحسن
المآل . وأمنهم على مستقبلهم ، إذ لا يعرفون حزناً ، حين يعاني غيرهم كُرب
الموقف العظيم المفرع . ولا هم يحزنون .
ذلك ؛ لأنهم عرفوا الله في الرخاء ، فعرفهم في الشدة ، تقربوا إليه
بالعمل الصالح ، فكفل لهم ربهم بفضله الأمن والطمأنينة والأمان .
ومن هنا ، كانت العقيدة السليمة هي الأساس ، أساس الفوز بالجزاء
الأوفى ، دون اعتبار لجنس أو لَوْن ، كما هو مفهوم من قوله تعالى : في صدر
هذه الآية الكريمة .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
[البقرة آية ٦٢]

ولا يخفى أن الحكم هنا منصب على من كان موجوداً منهم قبل أن تصله
الدعوة الإسلامية ، التي وُجّهت إلى الناس ، كل الناس .
أما وقد بلغت الدعوة العامة ، فقد تحدّد مفهوم الإيمان ، إنه الإيمان
بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

وكان الفوز إذن لمن تمسك به ، وطبقه في سلوكه عملاً صالحاً منتجاً خيراً ، مؤدياً إلى سعادة صاحبه ، وخير مجتمعه وصدق الله العظيم : ﴿ومن يتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ إذ أن : الدين عند الله الإسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

* أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَ بِمِنْ بَعْدِ مَاعْقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ [البقرة : ٧٥]

القصة :

قصة نزولها يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :

إنها نزلت في السبعين ، الذين اختارهم موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - ليذهبوا معه الى جبل الطور ، لسماح كلام الله له .

قال : فلما ذهبوا معه ، وسمعوا أمره ونهيه ، رجعوا إلى قومهم ، فأما الصادقون ، فأدوا ما سمعوا ، ثم قالت طائفة منهم : أسمعنا الله من لفظ كلامه ، يقول : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا ولا بأس .

ومن هنا نعلم : أن الآية الكريمة تُصَوِّرُ بجلاء جحود بني إسرائيل لما جاء بكتابهم - التوراة - ونكرانهم ما أمر الله أن يُعلن ويُعلم - كما توضَّح انقطاع الأمل في إيمانهم بالدعوة التي قام بها محمد رسول الله ﷺ - مع أنهم قرأوا في توراتهم ما يؤيد بعثته وعلموا من صفاته أنه رسولٌ عربيٌّ منهم .

فكان إذن معروفاً عندهم ، ومعروفاً لهم حق المعرفة .

لقد كانت هذه الحقيقة سافرة كالشمس الساطعة لأخبارهم والربانيين منهم ، هؤلاء الذين سمعوا كلام الله ، المنزل على عيسى - عليه السلام . فتصاموا عن سماعه . وكان الأحرى بهم بدلاً من جحودهم وإنكارهم ،

وتزييفهم، وتحريفهم ، وادعائهم الكذب والبهتان والتضليل . كان الأحرى بهم أن يمثلوا لتعاليم كتابهم ويطيعوا أوامر ربهم ، فيؤمنوا بالنبى الأمي الذي بشرت به التوراة ، لكنهم بعدوا عن الغاية ، وخرجوا بطوعهم من دائرة الحق والصواب ، حيث دفعهم حقدهم إلى اقتراف جريمة الزيف في كلام الله ، وإثم التحريف لكتابه .

ذلك ؛ لأن الإنكار طبعهم اللثيم ، والجحود شأنهم في جميع أمورهم ، ولأنهم أتباع طيعون لشياطينهم ، وأذلاء لأهوائهم ، فكان انحرافهم وتضليلهم ، ونأيهم عن هدى نبيهم .

ولم يكن غريباً عليهم عدولهم عن الحق الذي جاء به آخر الأنبياء وخاتمهم محمد - صلوات الله وسلامه عليه -

لقد أصروا على ارتكاب الزور ، وتمرغوا في أوحال الباطل . فقصت قلوبهم وسجل عليهم القرآن الكريم جرمهم ، في خطابه لهم بقول الحق جل وعلا :

أَفَكُلَّمَا جَاءَكَ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكَ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ
وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ

[البقرة : ٨٧]

فقد كانوا يتعللون بحجة واهية ، حين أعرضوا عن الإسلام ، وأبوا الدخول في دين الله ، الذي أرشدهم إليه كتابهم ، متعللين بأن لديهم من تعاليم أنبيائهم ما يكفيهم ، فهم لذلك على شرائعهم سائرون ، وبوصاياهم عاملون .

والحقيقة أنهم لو اتبعوا أنبياءهم حقاً ، لآمنوا بالنبى الذي بشرت به التوراة ، بمحمد خاتم الأنبياء ، بل ووضحته بنعته وصفته ، وأوصتهم بالإيمان به إن أدركوا زمانه .

لقد فضح القرآن الكريم نواياهم ، وكذب ادعاءاتهم ، وواجههم بموقفهم من نبيهم موسى - عليه السلام - وبمن توالوا بعده من الرسل ، الذين

انتهوا بعيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - إذ كان موقفهم من هؤلاء الرسل الكرام جميعاً واحداً ، كان هو الإنكار والجحود والنكران . إن القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه قد حفل بقصصهم المصورة لمواقفهم المخزية مع رسل الله إليهم ، وقد وصمهم بخروجهم على منهج الله ، حين انساقوا لأهوائهم المنحرفة ، وخضعوا لشهواتهم المادية ، وتردوا في حماة جرائمهم المفزعة . فقتلوا رسل الله بعد أن كذبوهم .

وكانت إدانتهم صافعة بقوله جل علاه لهم : ﴿أَوْ كَلِمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ .

لقد سدرُوا في غيهم ، بعد أن أنكروا ما جاء بكتابهم ، وكفروا بالتنزيل :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

[البقرة : ٩١]

وهكذا ، كان شأنهم في كل عصر من عصورهم المظلمة ، ذلك ؛ لأنهم عداة الله ، أعداء النور ، حلفاء الشيطان ، أنصار العدوان .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

[البقرة : ٧٦]

القصة :

قصة نزولها يرويها مجاهد - رحمه الله - بقوله :

قام النبي - ﷺ - يوم قريظة تحت حصن اليهود ، فقال : يا إخوان القرد ، ويا إخوان الخنازير ، ويا عبدة الطاغوت ، فقالوا : مَنْ أخير محمداً بذلك ؟ واتهم بعضهم بعضاً قائلين : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، لتكون لهم حجة عليكم ؟ فنزلت الآية .

أما عكرمة - رحمه الله - فيروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله : كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أيحدثُ العرب بهذا ؟ فإنكم كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان فيهم . قال : فأنزل الله تعالى قوله :

[البقرة : ٧٦]

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا

وأما السديّ ، فيرى أنها نزلت في ناس من اليهود ، آمنوا ثم نافقوا ، وكانوا يأتون المؤمنين من العرب بما تحدثوا به ، فقال بعضهم لبعض : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليقولوا : نحن أحب إلى الله منكم ، وأكرم عليه ، فنزلت الآية .

هذا ، وقد جاء بتفسير ابن كثير - رحمه الله - رأى ابن عباس - رضي الله عنهما - فيما رواه سعيد بن جبير ، في هذه الآية : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ أي ان صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ، ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا : أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنهم قد يستفتحون به عليكم ، فأنزل الله الآية .

وهم حين يحدثونهم بما علموه ، فإنما يقرّون بأنه نبي ، وهنا ، تكون الحاجة عليهم ، إذ قرأوا في التوراة أنه نبيّ ، وقد أخذ عليهم الميثاق باتباعه ، ولذا قالوا : اجحدوه ، ولا تُقرّوا به .

ولكنهم غفلوا عن أن الله يعلم سرهم ونجواهم وجهرهم وعلمهم . ﴿ أَوَلَا

يعلمون أن الله يعلم ما يُسرّون وما يعلنون ﴿﴾ .

لقد كشف القرآن ما اضمروه، وأظهر ما أسروا به ، فقد روى ابن وهب قوله : كان رسول الله - ﷺ - قد قال : لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن ، فقال رؤسائهم من أهل الكفر والنفاق : اذهبوا فقولوا لهم آمناً ، واكفروا إذا رجعتم إلينا ، فكانوا يأتون المدينة بالبكر - اي مبكرين - ويرجعون بعد العصر . ثم قرأ قوله تعالى :

وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَافِ ؕ آمِنُوا بِاللَّيْلِ ؕ أَنزَلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ؕ آخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[ال عمران : ٧٢]

وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ، ليعلموا خبر رسول الله - ﷺ - وأمره . فلما رجعوا ، رجعوا إلى الكفر ، فلما أخبر الله نبيه محمداً - ﷺ - قطع ذلك عنهم ، فلم يكونوا يدخلون .

وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون ، فيقولون : أليس الله قد قال لكم كذا وكذا ، فيقولون : بلى ، فإذا رجعوا إلى قومهم من الرؤساء قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ؟

ومن هنا نعلم ، أن القرآن الكريم ينزل على رسول الله - ﷺ - بما يفضح دعاوي اليهود ومزاعمهم ، ويردّ بعنف على ادعاءاتهم الكاذبة وأقاويلهم الزائفة ، ليُبطل كيدهم ، ويكشف مآبئهم ، ويحبط دسائسهم .

فقد كانوا مضللّين متلونين ، فهم ، إذا لقوا المؤمنين قالوا : آمناً برسالة محمد ، تمشياً مع ما بشرت به التوراة ببعثته ، وما جاءت به من نعت له ، عرفوه بصفته بعدما طال ترقيبهم له .

وطالما طلبوا من الله أن ينصرهم بحقّه على أعدائهم - ولكن ما الذي دفعهم إلى إنكار هذه الحقيقة ؟

ليس إلا طبعهم الخبيث ، قد سيطر عليهم ، فخلا بعضهم إلى بعض ، عائدين إلى طبعهم الغادر ، وكان بعضهم يلوم البعض الآخر لأنهم أفضوا إلى

المسلمين بما علموه من التوراة ، مما يؤكد بعثة محمد ﷺ نبياً لآخر الزمان ، لقد كانوا حريصين على أن لا يُفصحوا عن حقيقة ما بكتابهم من بشرى ببعثته عن غيرهم ، قائلين لهم : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ، وحتى لا تكون للمسلمين حجة عليهم ، بعد أن أقرّوا واعترفوا بما علموه من حقيقة .

ونسوا ، أو تناسوا أن الله أخذ عليهم الحجة حين أنكروا ما علموا وكتموا ما تعلموا .

وكان في هذا الإفضاء بما زعموه سراً ، مُدعين أنهم اختصوا به دون سائر الناس ، بينما هم يوقنون به في أعماق نفوسهم .

إنه ولا شك ضرب من الجنون ، فكيف يُلقون بسلاحهم لأعدائهم ليحاربوهم به .

ولذا نسمع القرآن الكريم يُقرّعهم تقرّيعاً عنيفاً ، حين يستنكر عليهم زعمهم في قلوبهم وأفعالهم ، كما هو واضح من قوله تعالى في نهاية الآية الكريمة : أفلا تعقلون ؟

إنهم في الحقيقة غير عقلاء ، ولو كانت لهم عقول لما غفلوا عن أمر مسلّم به ، هو أن الله يعلم سرّهم وعَلَنهم ، وصدق الله العظيم القائل .

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ [البقرة: ٧٧]

إن هؤلاء المنكرين قد عرفوا الحقيقة التي جاءت بها التوراة ، ولكن أحبارهم سمعوا فأنكروا ، منحرفين عن الحق الذي بشرّ ببعث محمد رسولاً لله ، كما انحرفوا عن اتباعه بعد ذلك . وبعد أن حرفوا كلام الله في التوراة وُصموا بأبشع ما يُوصف به إنسان وأدينوا بقتل الأنبياء بغير حق .

فاستحقوا بذلك وبغيره وعيد الله لهم بالويل المؤكد ، كما تنطق الآية الكريمة به ، حين توعدّهم الله :

فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

[البقرة : ٧٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِءًا نَّمْنَأَ قَلِيلًا ۗ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

[البقرة : ٧٩]

القصة

قصة نزولها ، يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :

نزلت هذه الآية في أخبار اليهود . إذ وجدوا صفة النبي - ﷺ - مكتوبة عندهم في التوراة ، أكحل العينين ، رُبْعَةٌ حينها يسعى ، حَسَنُ الوجه . فَمَحَوْهُ حَسَدًا وَبَغْيًا ، وقالوا : نجده طويلاً سبط الشعر ، فقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبي الذي يبعث آخر الزمان ، ليس يشبه نعت هذا ، وكانت للأخبار والعلماء من بني إسرائيل مكانة ، فخافوا على مكانتهم ، ومن ثمَّ غَيَّرُوا صِفَتَهُ .

وفي معناها وردت رواية لبعض المفسرين ، جاء فيها :

نزلت الآية في الذين غَيَّرُوا صِفَةَ النَّبِيِّ - ﷺ - وبدلوا نعته في كتابهم ، وجعلوه كآدم - عليه السلام - سبطاً طويلاً ، وكان ﷺ ربعة .

وقالوا لأتباعهم : انظروا إلى صفة النبي الذي يُبعث في آخر الزمان ، ليس يُشبه نعتَ هذا ، وكانت لأخبارهم وعلمائهم مأكلة وجباية يفرضونها على سائر اليهود ، فخافوا أن يذهبوا بمأكلتهم - إن هم بينوا صفته كما وجدوها بالتوراة - ومن ثمَّ غَيَّرُوا .

وأياً كانت الرواية ، فالإجماع على أن اليهود غيَّروا في كتابهم التوراة
أوصاف النبي - ﷺ - حتى يُضللُّوا أتباعهم ، فلا يعرفوا طريقاً إليه .

ومن هنا نعلم : أن المجتمع الإسرائيلي عندما نزلت هذه الآية ، كان
منقسماً إلى فريقين ، فريق الأمين ، منهم هؤلاء الغارقون في جهالتهم لا يدرون
ما بالتوراة ، مما تفتتح به البصائر ، ويستنير به الطريق ، فهم لا يعلمون من تعاليم
كتابهم أكثر مما يُلقنهم آياه أبحارهم ورهبانهم من زيف القول ، ومزعم
الرأي ، فقد خدروهم بالأمانى الواسعة الخادعة ، وأوهموهم بأنهم ناجون من
العذاب يوم يُعذَّب غيرهم من الناس . إذ قالوا لهم واهمين : «لن تمسنا؟ النار إلا
أياماً معدودة» .

لأنهم في زعمهم شعب الله المختار . ثم إنهم ادَّعوا كاذبين أنهم أبناء الله
وأحباؤه ، متعللين بأنه قد أبيع لهم ما حُرِّم على غيرهم ، فصدقوهم ، وتبعوهم
على ضلالهم وخداعهم وزعمهم .

أما الفريق الثاني ، يمثِّلون القلة المستعلية منهم ، فهم الذين استأثروا
وحدهم بالمعرفة ، والوقوف على أسرار التوراة ، إنهم أولئك الأبحار المحترفون ،
الذين استغلُّوا جهل سواد قومهم ، فقادوهم كما تقاد السائمة بلا وعي أو
تفكير ، لقد قادوهم إلى الضلال والهلاك والضياع .

لقد حرص هؤلاء الأبحار على استمرار جهل أتباعهم ليظلوا مبتزين
لأموالهم ، مستولين على أفكارهم - باعتبارهم أتباعاً طيِّعين ، يتقبلون كل ما
يلقى على أسماعهم من مزاعم وأوهام ، إنهم حريصون على أموالهم التي
فرضوها جباية واجبة الأداء لهم ، أكثر من حرصهم على نفعهم .

وكانت هذه الضرائب المفروضة عليهم ثمناً للغفران ، وإلا فإنهم في
زعمهم سيحرمونهم من مغفرة ربهم ، وبذا ، صاروا أثرياء على حساب أقوام
بؤساء فقراء .

وليتَّهم جهلوه فلقنوهم ما علموه من كتابهم ، وليتهم أناروا لهم عقولهم

المُغلقة الغافلة، بل زادوها جهلاً على جهل، بما غرسوه فيها من خرافاتهم وأوهامهم الكاذبة .

فقد كنتموا عنهم حقيقة كبرى ، هي بشرى التوراة بمبعث محمد - ﷺ - إذ أوردت صفاته الدالة عليه .

لقد كنتموا عنهم كل ما ينير أفكارهم ، وما يمهد أذهانهم - وصهيء أفكارهم لمعرفة الحق، الذي طُلبوا بإعلانه، والعلم الذي أمروا بنشره . ولكنهم حبسوه ، وكنتموا العلم المرهص ببعثة نبي آخر الزمان محمد - عليه الصلاة والسلام - من ولد إسماعيل بقصد ترسيخ سلطانهم بنفوس أتباعهم، فكتبوا بأهوائهم من عند أنفسهم ما يوافق مصالحهم الشخصية ، ونسبوه افتراء على الله إلى الله، والله منه براء .

إن أمثال هؤلاء المنحرفين المفتريين على الله الكذب ، لا يُرجى منهم خير، ولا يُتظر منهم يوماً استجابة للحق ، أو استقامة على طريق الهدى . ولا عجب ، إن أُنذره القرآن الكريم بالويل ينصبُّ على رؤوسهم، والهلاك يترصدهم بقوله تعالى في تنمة الآية الكريمة .

فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ

[البقرة : ٧٩]

إنه جزاء من جنس العمل، جزاء وفاق على ما أقدموا عليه من جرم في حق الله وكتابه، وذلك بعد أن سجّل عليهم ويلاً آخر في بداية الآية عندما شرعوا في تغيير كلام الله ، فهددهم الله بقوله :

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

[البقرة: ٧٩]

وما بين الويلين نسمع في الآية السرّ الذي دفعهم إلى ارتكاب جرمهم الذي أوردتهم موارد الهلاك . إنه ثمن قليل، إنه عرض زائل لقد أجرموا في أقدس ما أمروا به - كتاب الله - فحرفوه ، في مقابل ثمن مادي، وما أبخسه، إنه ثمن قليل . ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾

وهكذا - نجد اليهود لا يتورعون عن أن يبيعوا كلَّ القيم، ويدوسون كل

المقدسات ، لقاء المادة، نظير المال . فهو عندهم إلههم ومعبودهم ، وفي سبيله
تهون عليهم كرامتهم إن كانت لهم كرامة .
فما أحطَّ أخلاقهم ، وما أسوأ ما يرتكبون . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ
يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ - أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ [البقرة : ٨٠]

القصة :

قصة نزولها يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :
قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ، ويهودها يقولون : إنما الدنيا سبعة الآف
سنة ، إنما يُعَذَّبُ الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في
النار من أيام الآخرة ، وإنما هي سبعة أيام ، ثم ينقطع العذاب ، فأنزل الله
تعالى في ذلك من قولهم : ﴿وقالوا لن نَمَسَّنَا النار إلا أياماً معدودة﴾ .
أما عكرمة فيروي قوله :

إن اليهود قالوا : لن ندخل النار إلا نَحْلَةً للقسمة ، الأيام التي عبدنا فيها
العجل أربعين ليلة ، فإذا انقضت انقطع عنا العذاب ، فنزلت الآية :
وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً
[البقرة : ٨٠] وأما الضحَّاك فيقول :

وجد أهل الكتاب فيه - أي اليهود - ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين ،
فقالوا : لن نُعَذَّبُ في النار إلا ما وجدنا في التوراة ، فإذا كان يوم القيامة
اقتحموا النار ، فساروا في العذاب ، حتى انتهوا إلى سقر ، وفيها شجرة الزقوم
إلى آخر يوم من الأيام المعدودة ، فقال لهم خزنة جهنم : يا أعداء الله ، زعمتم
أنكم لن تُعذبوا في النار إلا أياماً معدودات فقد انقطع العدد ، وبقي الأمد .

وهناك رواية أخرى لعكرمة يقول فيها :

خاصمت اليهود رسول الله - ﷺ - فقالوا : لن ندخل النار إلا أربعين ليلة ، وسيخلفون فيها قوماً آخرين ، يعنون محمداً - ﷺ - وأصحابه ، فقال رسول الله - ﷺ - بل أنتم خالدون مُخَلَّدون ، لا يخلفكم فيها أحد . فأنزل الله تعالى الآية .

وأخيراً ، يحدثنا ابن مردويه ، عن أبي هريرة بقوله :
لما فُتحت خيبر ، أُهديت لرسول الله - ﷺ - شاة فيها سُمٌّ ، فقال رسول الله - ﷺ - : اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا ، فجمعوهم ، فقال لهم رسول الله - ﷺ - : من أبوكم ؟ قالوا : فلان ، قال : كذبتكم ، بل أبوكم فلان ، فقالوا : صدقتَ وبررتَ ، ثم قال لهم : هل أنتم صادقِّي في شيء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، وإن كذبتك عرفت كذبتنا كما عرفته في أبينا . فقال لهم رسول الله - ﷺ - : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ، ثم تخلفونا فيها . فقال لهم رسول الله - ﷺ - : احسبوا ، والله لا نخلفكم فيها أبداً ، ثم قال لهم رسول الله - ﷺ - : هل أنتم صادقِّي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم .

قال : هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا ؟ فقالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك»
(رواه مسلم)

وبعد : فإنه لأمر عجيب حقاً ، عجيب أن يزعم اليهود أنهم لن يعذبوا في النار كما يعذب سائر الناس ، متوهمين أنهم لن يُعذبوا إلا وقتاً محدوداً معيناً ، كأنهم عقدوا مع الله عقداً ، فهم ينتظرون الوفاء به ، أو كأنهم عاهدوه عهداً ، فهم على ثقة من الالتزام به ، والأداء له .

ولكنها الأمانى الخادعة ، والأوهام الزائفة ، التي يبثها أجهالهم في أذهان أتباعهم ، للإبقاء على سيطرتهم عليهم ، وإبعادهم عن الحقيقة التي سيصدمون بها يوماً .

وكان الردّ القرآني صفة لهم ، مُبدداً لأوهامهم ، حين قال الحق تبارك

وتعالى لهم :

قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
[البقرة : ٨٠]

إن هؤلاء الخادعين المخدوعين، قد عبثوا بتوراتهم، فلم يُبقوا فيها من كلام الله ، الذي أنزله على موسى - عليه السلام - شيئاً ، ولا من تعاليم دينهم غير ما يتفق ومصالحهم، ويتمشى وأهدافهم المادية . لقد كذبوا على الله ، وحرفوا كتابه ، ونسبوا إلى الله تعالى ما ليس له - وقالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وادعوا إفكاً وبهتاناً ما لم يُنزل الله على رسوله موسى - عليه السلام - بل بلغت بهم الجرأة ، وساقطهم وقاحتهم إلى إيهام من وراءهم من أتباعهم ، بأن الله ملتزم معهم بوعده ، ومرتبطة بهم ، بعهد ، لقد قالوا على الله ما لم يُنزل به سلطاناً ، وارتكبوا إفكاً وزوراً ونشروا من القول الزائف ما لم ينزل بكتاب ، أو يُسطر بصحيفة . ومن ثم ، كان التوبيخ القرآني مُوجهاً إليهم ، في صورة الاستفهام الإنكاري . كما هو واضح من قوله تعالى :

قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
[البقرة : ٨٠]

لقد سجل عليهم القرآن الكريم العذاب، حين أعلن عن حقيقتهم، وفضح نواياهم السيئة، وكشف ما أخفوه من أمرهم، وما أعلنوه من كذبهم ، فأثبت أنهم لن يعذبوا أياماً معدودة فحسب ، بل سيلقون عذاباً أبدياً لن يُخفف عنهم أبداً ، ولن يجدوا من ينصرهم من دون الله ، حين ينزل بهم عذابه ، فقال جل علاه في شأنهم :

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ
عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

[البقرة : ١٧٥]

كما قال في حقهم أيضاً :

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۗ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ

الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٨٦﴾

[البقرة : ٨٦]

وكما يقول فيهم أيضاً :

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ [البقرة : ١٦]

فقد زعموا أن الحياة الآخرة ستكون لهم وحدهم بنعيمها دون سائر الناس، كأنهم جنس خاص مميّز من خلق الله . أو كأنهم شعب مُفضّل على سائر الشعوب، ونسوا أو تناسوا أنهم أسوأ خلق الله ، وأهونهم على الله ، وأبغضهم عنده ، وأحقهم بأشد العذاب . لقد أوحى الله إلى نبيّه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتحداهم، ليكشف زيفهم ، وذلك بدعوتهم إلى المباهلة ، وهي أن يجتمعوا مع المسلمين في مكان واحد ، ثم يدعون الله جميعاً أن يُميت الكافر - ويخزي الكاذب .

وكان من أمرهم كما سجّل القرآن الكريم عليهم ، أنهم كرهوا الموت ، ونكصوا عن إتمام المباهلة ، خشية افتضاح أمرهم ، واكتشاف كذبهم ، لذا تراجعوا أمام هذا التحديّ المُميت ، وهم أحرص الناس على حياة ، كما يفهم من قوله تعالى في سورة البقرة :

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَمْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ [البقرة : ٩٤ - ٩٥]

وهكذا، تراجعوا عن المباهلة ، خوفاً من الموت، وحرصاً على الحياة ، ذلك ؛ لأن حياتهم أحبُّ إليهم من الحق الذي دُعوا إليه ، الحق الذي عرفوه

وأنكروه ، ولكن ما قيمة حياة مليئة بالغش والزيف ، والتزوير ، والكذب والافتراء والخديعة ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

[البقرة : ٨٩]

القصة :

قصة نزولها ، يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله : كان يهود خيبر تقاتل غطفان ، فلما التقوا ، هُزمت يهود خيبر ، فعازت يهود بهذا الدعاء : «اللهم إنا نسألك بحق النبي الذي وعدتنا به أن تُخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم .»

قال : فكانوا إذا التقوا بهم دعوا بهذا الدعاء ، فهزموا غطفان ، فلما بعث الله النبي محمداً - ﷺ - كفروا به ، فأنزل الله تعالى :

وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا

[البقرة : ٨٩]

أي ، بك يا محمد إلى قوله تعالى :

فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ

[البقرة : ٨٩]

وله رواية أخرى ، نقلها عنه أبو حاتم ، يقول فيها :

إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - ﷺ - قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء وداود بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، ونخبروننا بأنه مبعوث ، فتصفونه بصفته .

فقال سلام بن مشكم - أحد بني النضير - : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي نذكر لكم ، فأنزل الله تعالى الآية :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ۖ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ

[البقرة : ٨٩]

أما السدي فيقول : كانت العرب تمرّ بيهود ، ويلقى اليهود منهم أذى ، وكانت اليهود تجدد نعت محمد في التوراة ، وخبر مبعثه . وتعلم أنهم سيقاتلون معهم النبي ، فلما جاءهم رسول الله - ﷺ - كفروا به حسداً وبغياً ، وقالوا : إنما كان الرسل من بني إسرائيل ، فما بال هذا من ولد إسماعيل ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ﴾ . وفي قصة هذه الآية ، يقول محمد بن إسحق : قال المشركون قد علونا اليهود قهراً دهنراً في الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش ، واتبعناه ، كفروا به وحسدوه . ومن هنا نعلم : أن اللعنة التي وصم بها اليهود ، في نهاية الآية الكريمة بقوله تعالى :

[البقرة : ٨٩]

فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ

هي جزاء وفاق لهم على موقفهم الشائن المتناقض . فقد وصفوا بالكفر ، وهو أبشع ما يُوصف به إنسان ، فاللعنة والكفر صفتان لازمتان لهم .

ثم إن القرآن الكريم قد فضح أساليبهم الدنيئة ، وكشف حيلهم في إخفاء ما علموه ، وكان الموقف المزرى الذي نعاه عليهم القرآن الكريم ، حين بين سر ما أقدموا عليه ، بقوله تعالى :

[البقرة : ٨٩]

بِسْمِ اللَّهِ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا

فقد كان الكفر هو الثمن الذئ لأفسهم التي باعوها للشيطان ، فكأن أنفسهم تعادل ثمناً هو قدرها وقيمتها وهو الكفر، كما أن نفس المؤمن تعادل ثمناً قيماً غالباً هو الإيمان .

وشتان بين الثمنين ، والمثمين ، إن صفقتهم إذن خاسرة ، إذ خسروا أنفسهم في الدنيا ، حين بعدوا عن ركب النور ، وأبوا إلا أن يكابروا منكرين ما جاء بكتابهم ، كما خسروها في الآخرة ، إذ سيلقون ما توعدهم الله به من عذاب ولعنة ، جزاء لهم على كفرهم برسالة نبيهم ، حين أنكروا ما جاء به من بشرى يبعث محمد ، ثم حين كفروا بمحمد لما ناصبوا دينه العدا ، والحقوا به وبأصحابه أشد الإيذاء .

إن مكابرتهم ، ومناقضتهم أنفسهم ، ليس إلا لحسدهم رسول الله - ﷺ - حين بعثه الله من غيرهم ، ولحرصهم على ما يجلب لهم من أموال تابعيهم ، ولخشيتهم على سلطانهم الذي فرضوه على أقوامهم المنقادين لهم ، كما تقاد الأنعام ، ثم لحقدهم الأسود على النبي والمسلمين ، وهذه دائماً طبيعتهم ، طبيعة الأثرة والجحود ، وإنكار الحق ، والتعصب الممقوت لجنسهم الذي توهموه فوق الأجناس حين اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار ، والله ورسله منهم أبرياء . وهذه الرذائل التي تميزوا بها عاشوا في عزلة عن المجتمعات ، كأنهم مقطوعون من شجرة الإنسانية ، وكانت لعنة الله ، هي الجزاء العادل لأثرهم البغيضة ، وقلوبهم العليلة التي طمس عليها الحقد والحسد ، وملأها البغي والعدوان والشر والطغيان إذ كان وما زال دافعهم إلى ما هم فيه ، كما جاء بقرآن الله الكريم ﴿بغياً وحسداً من عند أنفسهم﴾ بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، وحسداً لكل ذي نعمة من غيرهم ولا عجب إذن إن اكتسبوا سخط الله ومقته ، فباؤوا بغضب على غضب ، وعاشوا أذلة في الحياة ، أما الذل الأكبر ، والخزي الأشد ، ففي انتظارهم يوم يحاسبون على ما اقترفت أيديهم واكتسبت قلوبهم من سوء وشر وهتان .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا

[البقرة : 97]

بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

القصة :

قصة نزولها يرويها ابن عباس - رضي الله عنها - بقوله :

أقبلت اليهود على النبي - ﷺ - فقالوا : يا أبا القاسم ، نسألك عن أشياء ، وإن أجبنا عنها اتبعناك ، أخبرنا عن الذي يأتيك من الملائكة ، فإنه ليس نبيًّا إلا ويأتيه ملك من عند ربه عز وجل بالرسالة بالوحي ، فمن صاحبك ؟ قال : جبريل ، قالوا : ذلك الذي ينزل بالحرب والقتل ، ذاك عدونا ، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالمطر والرحمة اتبعناك ، فأنزل الله تعالى قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام ، ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾

وأما ما رواه حوشب عن ابن عباس أيضاً ، فقد جاء في مُسند أحمد وفي روايته هذه يقول :

حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبي ، فقال رسول الله - ﷺ - : سلوا ما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة ، ما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم عن شيء فعفرتموه ، لتتبعوني على الإسلام ؟ فقالوا : ذلك لك .

فقال رسول الله - ﷺ - : سلوا ما شئتم ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا : أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء الرجل وماء المرأة ؟ وكيف يكون الذكر والأنثى ؟ وأخبرنا عن هذا النبي الأمي ، الذي نجد في التوراة ؟ وأخبرنا من وليه من الملائكة ؟

فقال النبي - ﷺ - : عليكم عهد لئن أنا أخبرتكم لتتبعوني ؟ فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق .

فقال : نشدتكم بالذي أنزل في التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضاً شديداً ، فطال سقمه منه ، فنذر الله نذرا لئن عافاه من مرضه لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وكان أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحُومَ الْإِبِلِ ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله - ﷺ - اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ . وأنشدكم الله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، فإن علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً ، بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل ، كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل ، فقالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد عليهم ، وأنشدكم الله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي ، تنام عيناه ، ولا ينام قلبه ؟ قالوا : نعم ، قال : اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، قالوا : أنت الآن ، فحدثنا عن وليك من الملائكة ؟ فعندها نتبعك أو نفارقك .

قال : فإن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط ، إلا وهو وليه فقالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعتك وصدقتك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوا ؟ قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية .

فعندها باؤوا بغضب على غضب (رواه الإمام أحمد في مسنده)

وأخيراً يروي الشعبي عن داود بن أبي هند قوله :

نزل عمرُ الروحاء ، فرأى رجالاً يبتدون أحجاراً يُصَلِّونَ إِلَيْهَا فقال : ما بال هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله - ﷺ - صَلَّى ههنا ، قال : ذاك كفر ، ثم قال : أيماً رسول الله - ﷺ - أدركته الصلاة بوادٍ صلاها ، ثم ارتحل فتركه ، ثم أخذ يحدثهم فقال : كنت أشهد اليهود يوم مُدَارَسَهُمْ ، فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يُصدِّقُ التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ، ما من أصحابك أحد أحبَّ إلينا منك ، قلت : ولم ذاك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا ، فقلت : إني آتيكم

فأعجب من القرآن كيف يُصدِّق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدِّق القرآن ؟ قال : ومراً رسول الله ﷺ - فقالوا : يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق، به قال : فقلت لهم عند ذلك : نشدتكُم بالله الذي لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقِّه ، وما استودعكم من كتابه ، هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قالوا : فسكتوا : فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد أغلظ عليكم فأجيبوه ، قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا ، فأجبه أنت ، قال : أما إذ ناشدتنا ، بما نشدتنا ، فإننا نعلم أنه رسول الله ، قلت : ويحكم إذا هلكتم ، قالوا : إننا لم نهلك . قال : وكيف ذلك ؟ وأنتم تعلمون أنه رسول الله ، ولا تتبعونه ولا تصدقونه ، قالوا : إن لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة . وأنه قرنه بنبوته ، قلت : ومن عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا : عدوًّا جبريل ، وسلمنا ميكائيل ، قالوا : إن جبريل ملك الفظاظ والغلظة والإعسار ، والتشديد والعذاب ، ونحو هذا .

وإن ميكائيل ملك الرحمة والرفقة والتخفيف ، ونحو هذا . قال : قلت وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره .

قال : فقلت : فوالذي لا إله إلا هو ، إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما . وسلم لمن سالمها ، وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدوًّا ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدوًّا جبرائيل ، قال : ثم قمت ، فاتبعتُ النبي ﷺ ، فلحقته ، وهو خارج من خوخة لبني فلان ، فقال : يا ابن الخطاب ، ألا أقرئك آيات نزلن قبل ؟ فقرأ عليّ : ﴿ قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ الآية .

قال : فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد جئتُ أنا أريد أن أخبرك ، وأنا أسمع اللطيف الخبير ، قد سبقني إليك بالخبر .

ومن هنا نعلم : أن تحدي اليهود لهذا الدين الذي أثار حوافظهم كان مستمرًا ، وكان سمة من سماتهم المميّزة بالحنق والغيط ، لقد كان في أسلتهم مازعموه أنه تعجيز للنبي ، ولكنه بوحى من الله ، ونور من لدنه - كان بارعًا في أفحامهم ،

وإلزامهم الحجة بما اعترفوا له ، وما أنزل على نبيهم في كتابهم ، فلم يعد يخفى على رسول الله - ﷺ - من أساليبهم الماكرة شيء ، حتى في جدلهم واستفساراتهم . ثم ما بالهم يعادون جبريل ، وهو ملك كريم ، لم يسلبهم مغنماً ، ولم يقاسمهم مالاً ، ولم ينتزع منهم سلطة ، ولكن لماذا ينزل على قلب محمد بإذن الله دون غيره من بني اسرائيل ؟ فكأنما احتكروا الرسائل لأنفسهم واستأثروا بها ، فهاهم ألا ينزل على غير أنبيائهم . ولكنه نزل بأمر الله ، مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين - ولكن ، أنى لبني اسرائيل أن يؤمنوا أو يوقنوا أو يرجعوا إلى حق ظهر لهم وتعاموا عنه ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ

لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

[البقرة : ٩٨]

القصة :

قصة نزولها يرويها الشعبي بقوله :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة ، فأعجب من موافقة القرآن للتوراة ، وموافقة التوراة للقرآن ، فقالوا : يا عمر ، ما أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ؟ قالوا : لأنك تأتينا وتغشانا ، قلت : إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضاً ، وموافقة التوراة القرآن ، وموافقة القرآن التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم إذ مر رسول الله - ﷺ - فدخل خوخة في المدينة ، فأقبلت عليهم فقلت : أنشدكم بالله ، وما أنزل عليكم من كتاب ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال سيدهم : لقد نشدكم الله فأخبروه ، فقالوا : أنت سيدنا فأخبره ، فقال سيدهم : إنا نعلم أنه رسول الله ، قال : فقلت : فأنت أهللكم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ، فقالوا : إن لنا

عدوًّا من الملائكة ، وسليماً من الملائكة ، فقلت : مَنْ عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا : جبريل عدونا ، وهو ملك الفضاظة والغلظة والتشديد ، قلت : ومن سلمكم ؟ قالوا : ميكائيل ، وهو ملك الرأفة واللين واليسير ، قلت ، فإنِّي أشهدكم ، ما يحلُّ لجبريل أن يُعادي سلم ميكائيل ، وما يحلُّ لميكائيل أن يسلم عدوَّ جبريل ، وإنهما جميعاً ومن معهما أعداء لمن عادى أحدهما ، وسلم لمن سالموه ، قال : ثم قمت ، فدخلت الخوخة ، التي دخلها رسولُ الله - ﷺ - ، فاستقبلني فقال : يا ابن الخطاب ، ألا أقرئك آيات نزلت علي قبل ؟ قلت : بلى ، فقرأ ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ . إلى ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ قلت : والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود ، فإذا اللطيف الخبير قد سبقني بالخبر ، قال عمر : لقد رأيتني أشدَّ في دين الله من حجر .

وهناك رواية أخرى لابن عباس رضي الله عنهما يقول فيها : إن أحد أبحار اليهود ، يقال له : عبدالله بن ضوريا ، حاجَّ النبي - ﷺ - فسأله عن أشياء ، فلما اتجهت الحجة عليه قال : أيُّ ملكٍ يأتيك من السماء ؟ قال : جبريل ، ولم يبعث الله نبياً إلا وهو وليُّه ، قال : ذاك عدونا من الملائكة ، ولو كان ميكائيل لآمنا بك ، إن جبريل نزل بالعذاب والقتال والشدة ، فإنه عادانا مراراً كثيرة ، وكان من أشدَّ ذلك علينا أن الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرَّب على يدي رجل يقال له بختنصر ، وأخبرنا بالحين الذي يخرَّب فيه ، فلما كان وقته بعثنا رجلاً من أقوياء بني إسرائيل في طلب بختنصر ليقته ، فانطلق بطلبه حتى لقيه ببابل غلاماً مسكيناً ليست له قوة ، فأخذه صاحبنا ليقته ، فدفع عنه جبريل وقال لصاحبنا ، إن كان ربكم أذن في هلاككم فلا تسلط عليه ، وإن لم يكن هذا فعلى أي حقِّ تقتله ؟ فصدَّق صاحبنا ورجع إليه ، وكَبَّرَ بختنصر وقوي وغزانا ، وخرَّب بيت المقدس ، فلهذا نتخذة عدواً ، فأنزل الله هذه الآية .

أما مقاتل فيقول : قالت اليهود ، كان جبريل عدونا أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا ، فأنزل الله الآية .

وبعد : فما بال هؤلاء القوم يعادون ملائكة الله ، وبخاصة جبريل ؟ ألم يعلموا أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبه بإذن الله ، إن من يُعادي ملائكة الله يكفر بهم والله لا يحب الكافرين ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب) ولذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه ، ذلك ؛ لأن ملائكة الله جميعاً مُصطفون عند الله ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ إن ملائكة الله مكرمون تلمس بركاتهم نفحات السماء ، فقد كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل قال : (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

إن جميع الروايات الواردة في قصة هذه الآية متفقة على إدانة اليهود ووصمهم بالحقد والعداء ، الحقد على كل من أوتي من الله فضلاً ، والعداء حتى لملائكة الله الكرام ، ثم إنهم بعد ذلك مكابرون ، لا يقتنعون بمنطق ، ولا يرجعون إلى حق ، هذا شأنهم دائماً وبهذا استحقوا غضب الله ولعنته . فهل يُرجى منهم يوماً خيراً ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ
وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ
بِبَابِ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ
فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ
بِضَائِقِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ
عَلِمُوا مَنْ أَشْتَرَتْهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ

القصة :

قصة نزولها يرويها حصين بن عمران بقوله :

بينما نحن عند ابن عباس إذ قال : «إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء فيجيء أحدهم بكلمة حق ، فإذا جرب من أحدهم الصدق ، كذب معها تسعين كذبة ، فيُشربها قلوب الناس ، فأطلع على ذلك سليمان ، فأخذها فدفنها تحت كرسيه ، فلما مات سليمان قام شيطان الطروق ، فقال لإخوانه : ألا أدلكم على كنز سليمان المنيع ، الذي لا كنز مثله قالوا : بلى ، قال : إنه تحت الكرسي ، فأخرجوه فقالوا : هذا سحر سليمان سحر به الأمم . فأنزل الله تعالى ما برأ به سليمان من قولهم بقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .﴾ الخ الآية .

وهناك رواية لبعض المفسرين يقول فيها : إن الشياطين كتبوا السحر على لسان آصف هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك ، ثم دفنوها تحت مُصلاه ، وقالوا للناس : إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه ، فلما علم علماء بني إسرائيل قالوا : معاذ الله ، أن يكون هذا علم سليمان ، أما السفلة منهم فقالوا : هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلمه ، ورفضوا كُتُبَ أنبيائهم ، ففشت الملامة على سليمان ، فلم تزل هذه حالتهم ، حتى بعث الله محمداً ﷺ ، وأنزل الله عليه عُذر سليمان على لسانه ، ونزلت براءته مما رُميَ به فقال سبحانه ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ إلى آخر الآية .

أما عثمان بن بشير فيقول في روايته : كان سليمان إذا نبتت الشجرة قال : لأي داءٍ أنتِ ؟ فتقول : لكذا وكذا ، فلما نبتت شجرة الخروب قال : لأي شيء أنتِ ؟ قالت : لخراب بيتك ، قال : تخربينه ؟ قالت : نعم ، قال : بشس الشجرة أنت ، ثم لم يلبث أن مات ، فجعل الناس يقولون في مرضاهم : لو كان مثل سليمان فأخذته الشياطين ، فكتبوا كتاباً وجعلوه في مصلى سليمان ، وقالوا : نحن ندلكم على ما كان سليمان يُداوي به ، فانطلقوا ، فاستخرجوا

ذلك ، فإذا فيه سحر، فأنزل الله الآية ، هذا رأي ، ولا أرى أن في هذه الرواية صحة ، فسلیمان أنطق الله له الطير ولم ينطق له النبات ، ثم ما العلاقة بين ما كان عليه سليمان وبين المناسبة الواردة في نزول الآية ؟
ولعل أرجح ما روي في سبب النزول ما قاله السدي :

إن الناس في زمن سليمان كتبوا السحر ، فاشتغلوا بتعلمه ، فأخذ سليمان تلك الكتب ، قذفها تحت كرسيه ، ونهاهم عن ذلك ، ولما مات سليمان ، وذُهب به ، وما كانوا حينئذ يعرفون أين دفن الكتب ، فتمثل شيطان على صورة إنسان ، فأتى نفرًا من بني إسرائيل وقال : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدًا ؟ قالوا : نعم ، قال : فاحفروا تحت الكرسي ، فحفروا ، فوجدوا تلك الكتب ، فلما أخرجوها قال الشيطان ؛ إن سليمان ملك الجن والإنس والشياطين والطيور بهذا ، فأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلذلك أكثر ما يوجد من السحر عند اليهود ، فبرأ الله سليمان من ذلك ، وأنزل الله الآية .

يقول السدي في قوله تعالى :

وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ [البقرة : ١٠٢]

أي على عهد سليمان كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة ليخبرونهم ، فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا ، فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم ، وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتب الناس ذلك الحديث في الكتب ، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ، ثم دفنها تحت كرسيه ، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق ، وقال لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان وذُهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان في صورة إنسان ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل فقال لهم : هل أدلكم على كنز سليمان ؟ إنه هنا فاحفروا تحت الكرسي فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له . فإذاً فقال لا ، ولكن ههنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني ، فلما وجدوا الكتب قال الشيطان : إن سليمان إنما كان يسخر الإنس ، والشياطين والطيور بهذا السحر ثم طار وذُهب وفشا في

الناس أن سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ - خاصموه بها ، فذلك قوله تعالى

[البقرة: ١٠٢]

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

ومن هنا نعلم أن اليهود بعدما تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم ، راحوا يبحثون عما كان يقصّه الشياطين عن عهد سليمان، بغية تضليل الناس بهذه الدعاوي المفتراة على سليمان، فكانوا يقولون: إنه كان ساحراً، وما استطاع أن يسخر الجن وغيرها إلا بتأثير السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه .
وجاء القرآن الكريم منزهاً سليمان عما زعموه من أنه كان ساحراً، بقوله تعالى :

[البقرة : ١٠٢]

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ

إذ اعتبر القرآن السحر ضرباً من ضروب الكفر، المنفي عن سليمان المسجل على الشياطين ، وأتباعهم من اليهود، ثم كل من مارسه بعد. كما يفهم من الآية الكريمة أن القرآن الكريم ينفي عن الملكين ، هاروت وماروت - اللذين كانا ببابل. ينفي عنهما السحر، إذ أن الله تعالى لم ينزله عليهم بقوله جل وعلا :
«وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت» .

إذ كان الشياطين من الجن ، والشياطين من اليهود، يُرَوِّجون شائعة مغرضة ، مؤداها أن هذين الملكين كانا يعرفان السحر ، ويعلمانه الناس ، على أنه منزل عليهما .

وكان النفي القرآني قاطعاً عن الملكين، وعن تنزيل السحر من الله تعالى

عليهما .

كما كان البيان القرآني أيضاً قاطعاً، بأن الله بحكمته جعل هذين الملكين فتنة وابتلاءً للناس، بدليل أنهما كانا يقولان لكل من يطلب تعلم السحر: «إنما نحن فتنة فلا تكفر» .

ولكن سفلة بني إسرائيل بما عرف عنهم من النزوع نحو الشرّ ، كانوا يُصَرِّون على تعلمه ، على الرغم من تحذير الملكين لهما من استعماله ولكنهم أصرّوا على أن يتعلموا منه ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، ولكن ، لا لقوة فيه بل بإرادة الله ، إذ لا أثر للسحر بذاته إنما بإذن الله ﴿وما هم بضارين به من

أحد الآياذن الله ﷻ ولقد علم الذين ارتضوا لأنفسهم هذا الشر الموصوف بالكفر أن من اشتراه ، وارتضاه لنفسه ، لاخلق له في الدنيا ولا في الآخرة . ﷻ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﷻ ثم كانت الآية في خامتها منقّرة عن تناول السحر بقوله تعالى : « ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

[البقرة : ١٠٤]

القصة :

قصة نزولها يرويها ابن عباس ، رضي الله عنها بقوله :

ذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها ، فلما سمعوا اليهود يقولونها للنبي ﷺ - أعجبهم ذلك ، وكانت كلمة (راعنا) في كلام اليهود سباً قبيحاً ، فقالوا : إننا كنا نسبُ محمداً سراً ، فالآن نعلن السبَّ لمحمد ، فإنه من كلامه ، فكانوا يأتون نبيَّ الله - ﷺ - فيقولون : يا محمد ، راعنا ، ويضحكون ، ففطن بها رجلٌ من الأنصار ، وهو (سعد بن عباد) وكان عارفاً بلغة اليهود فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذي نفس محمد بيده ، لئن سمعتهُ من رجل منكم لأضربنَّ عنقه ، فقالوا : أستم تقولونها ؟ فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعِنَا ، وقولوا انظُرنا واسمعوا . . » الآية .

أما السدِّي فيقول : كان رجلان من اليهود هما (مالك بن الصيف ، ورفاعة بن زيد) إذا لقيا النبيَّ - ﷺ - قالا وهما يكلمانه : راعِنَا سمعك يا محمد ، واسمع غير مسمع ، فظنَّ المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يُعظّمون به أنبياءهم ، فقالوا للنبيَّ - ﷺ - ذلك .

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لا تقولوا راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا ، وللكافرين عذابٌ أليمٌ﴾.

وأخيراً ، نسمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول :
راعنا بلسان اليهود السبِّ القبيح ، فلما سمعوا الصحابة يقولونه : أعلنوا بها إليه ، فكانوا يقولون ذلك ، ويضحكون فيما بينهم ، قال : فنزلت الآية : فسمعها منهم سعد بن معاذ ، فقال لليهود: يا أعداء الله ، لئن سمعتها من رجل منكم بعد هذا المجلس لأضربن عنقه .

وبعد ، فالنهي الذي صُدِّرت به آيتنا هذه ، نهي صريح عن التشبه باليهود ، فيما يقولون أو يفعلون ، ذلك ؛ لأن اليهود لم يتركوا فرصة للنيل من النبي والمسلمين إلا اغتتموها ، ولم يجدوا مجالاً للتشهير بهم إلا اقتحموه ، فقد كانوا يُورون بالكلام ، يقصدون به التنقيص من شأنه ، فهم بدلاً من أن يقولوا له : اسمع لنا ، يقولون : راعنا يورون بها عن الرعونة ، إنه لون من ألوان التحريف الذي ألفوه وفيهم يقول الله عز وجل :

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

[النساء: ٤٦]

كما وردت الأحاديث النبوية الشريفة محذرة أيضاً من التشبه باليهود فقد روى الترمذي بسند حسن أن رسول الله - ﷺ - قال: (إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود) كما يروي ابن عمر - رضي الله عنهما - قوله : قال رسول الله - ﷺ - : (بُعِثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يُعيد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعلت الذلَّة والصغار على من

خالف أمري ، ومن تشبهه بقوم فهو منهم).

ويعجبني قول ابن مسعود - رضي الله عنه - لرجل قال له : اعهد إليّ فقال : إذا سمعت الله عز وجلّ يقول : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرעהها سمعك ، فإنه خيرٌ يأمر به ، أو شرٌّ ينهى عنه .

ومن هنا نعلم ، أن اليهود كانوا على عهد رسول الله - ﷺ - يتفننون في إيذائه بشتى صنوف الإيذاء ، كانوا يؤذونه بالفعل كثيراً ، وبالقول أكثر ، وما ذلك إلاً تنفيساً عن حقدهم الدفين ، فقد روي أن سفهاءهم كانوا يُميلون ألسنتهم ، وهم يتوجهون بكلامهم إلى النبي - ﷺ - حتى يؤدي اللفظ من كلامهم معنى غير سليم ، إذ كانوا في تحيتهم له أو للمسلمين يقولون : السام عليكم ، بدلاً من السلام عليكم ، والسام - كما هو معروف - الموت إنهم بنداؤتهم يُورون ولا يُصرحون ؛ إذ لا يجروُن على إعلان سفههم خشيةً منه وجبناً في طباعهم ، فهم لذلك يمتالون على إيذائه بملتوى القول ، وهو أسلوب لا يستعمله إلاً أراذل القوم ورعاعهم وسفهاؤهم .

ولذا ؛ جاء النهي القرآني للمؤمنين عن أن يتشبهوا باليهود ، بقوله

تعالى :

يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

[البقرة : ١٠٤]

بل علمهم القرآن الأدب في القول المهذب ، وأرشدهم إلى استعمال لفظ انظرنا - بدلاً عن راعنا .

إن أساليب اليهود حتى في خطابهم الناس ، أساليب لا تمتُّ إلى الأخلاق بصلة ، ومن هنا ، نهي الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بمن لا خلاق لهم ، أمثال اليهود في أفعالهم وأقوالهم وسائر تصرفاتهم .

فالأولى بالمؤمنين المخاطبين بصفة الإيمان ألاً يتشبهوا بهم ؛ لأن نهي الله كامره واجب التنفيذ .

إن هذا النهي القرآني ، الموجه إلى المؤمنين في آيتنا هذه يوحى برعاية الله سبحانه لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بخاصة وللمسلمين جميعاً بعامة .

لأن الله دائماً يدافع عن أوليائه إزاء كل كيد، أو قصد شرير من أعدائهم
الماكرين الحاقدين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

* مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ

[البقرة : ١٠٦]

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

القصة :

قصة نزولها . يقول فيها المفسرون :

«إن المشركين قالوا : أترون إلى محمد، يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم
عنه ، ويأمرهم بخلافه ؟ ويقول لنا اليوم قولاً ، ويرجع عنه غداً ؟ ما هذا في
القرآن إلا كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً ،
فأنزل الله تعالى قوله :

[النحل : ١٠١]

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ

[البقرة : ١٠٦]

مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا

ولا يخفى أنه ربما تعدد النازل والسبب واحد، والإجماع على أن النسخ في
الحكم بالنسبة لمصلحة المكلفين، فالنسخ خير لهم ، وأرفق بهم . (انتهى
كلامهم) . أما قتادة، فيقول في آيتنا هذه: «إنها آية فيها تخفيف ، فيها رخصة
فيها أمر، فيها نهي» .

كما يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - فيها : « ما تبدل من آية أو تركها
لا تبدلها » هكذا جاء في ابن كثير من رواية علي بن أبي طلحة .

كما يقول عبد الرزاق بن معمر : «كان الله عز وجل يُنسي نبيه ما يشاء ،
وينسخ ما يشاء .»

كما يقول الحسن : إن نبيكم - ﷺ - قرأ قرآنا ثم نسيه ، وهو كلام فيه

نظر ، فالله الذي ينسبه لحكمة يريد لها ، وما كان للنبي أن ينسى وحياً أبداً .
ولعل أرجح ما قيل في هذا الصدد هو قول عمر بن الخطاب - رضي الله
عنه - «أقرؤنا أيُّ، وأقضاناً عليُّ وإنا لندعُ من قول أبيّ - وذلك أنه يقول :
لا أدعُ شيئاً سمعته من رسول الله - ﷺ - وقد قال الله ﴿ ما ننسخ من آية
أو ننسها ، نأتِ بخير منها ، أو مثلها ﴾ أي في الحكم بالنسبة للمُكلفين من
أمته ، مما فيه خيرٌ لهم ، ومنفعةٌ ورفق .

ونهاية الآية الكريمة :

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[البقرة : ١٠٦]

توحي بأن الله تعالى هو المتصرف في خلقه ، ألا له الخلق والأمر؛ فكما خلقهم
كما شاء ، يتصرف فيهم بأحكامه حسب إرادته ، يُجرّم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ،
فهو يحكم ولا مُعقّب لحكمه . لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون .

ومن حكمة النسخ أن الله تعالى يختبر به عباده ، ليعلم من يطيع رسوله
في النسخ حين يأمر فيه لمصلحة لهم يعلمها ، ثم ينهى عنها لما يعلم أيضاً من
المصلحة ، إن الطاعة كل الطاعة في امتثال أمره ، وترك ما نهى عنه .

إن في هذا ردُّ عنيف على اليهود الذين ادعوا استحالة النسخ ، واتخذوا
منه ذريعة لإشاعة أباطيلهم ضد الإسلام جهلاً ، وكفراً وعناداً .

إذ لا يمنع من حدوثه عقلاً ، لأنه العليم بمصلحة عباده ، بدليل أنه وقع
في كتب الله المتقدمة ، وشرائعه السابقة ، بما فيها التوراة .

فقد ثبت أنه كان مباحاً لأدم عليه السلام أن يُزوّج بناته من بنيه ، ثم حرّم
الله ذلك ، ونسخ الحكم . كما كان نكاح الأختين مباحاً لبني إسرائيل ، ثم حرّم ذلك
في التوراة ، كما نسخ حكم الله بالنسبة لقتل كل من عبد العجل منهم ، ثم رفع
الحكم ، لئلا يؤدي القتل إلى استئصالهم .

إن اليهود وبخاصة أحبارهم يعلمون هذه الحقيقة ، ويعترفون بها ،
ولكن ، ما بالهم يعيبونه على الشريعة الإسلامية ، وقد وقع بكل الشرائع

السماوية السابقة ، إنه عنادهم الذي دفعهم إلى إنكاره . لأنهم قوم مكابرون منكرون .

وسواءً كان السبب في نزول الآية الكريمة هو تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت العتيق بمكة ، كما يدلُّ عليه سياق هذه الآية ، مع ما بعدها أم كانت مناسبة أخرى ، تتعلق بتعديل بعض الأوامر والتشريعات ، والتكاليف تحقيقاً لمصلحة المكلفين ، وتمشياً مع نمو الجماعة المسلمة ، ومسيرة لأحوالها المتطورة ، فإن من المعروف أن اليهود اتخذوها فرصة متاحة لإشاعة القلق في نفوس المسلمين ، وما هم بمدركي غايتهم .

فالقرآن الكريم يتصدى لهم دائماً ، ببيان شافٍ حاسم في شأن النسخ والتبديل ، ليقضي على شبهاتهم التي أثاروها ، بدافع حقدهم الدفين وتنفيذاً لمخططهم ضد الإسلام ، تمشياً مع سياستهم الإجرامية الرامية إلى هدم العقيدة الإسلامية بشتى الحيل وبكل الأساليب ، وتختتم الآية الكريمة بخطاب إلى النبي ﷺ - وهو بالتالي خطاب إلى كل المؤمنين معه ، إذ يقول المولى تبارك وتعالى :

الرَّ تَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة ١٠٦]

فلاستفهام هنا يقرّر قدرة الله ، الذي أصدر حكمه ، ثم شاءت قدرته واقتضى علمه بصالح عباده أن ينسخه ، وما على المؤمنين بعد ذلك إلا أن يذعنوا للأمر ويسلموا بالحكم .

كما توحى هذه الخاتمة للآية الكريمة بتحذير المؤمنين من الانصياع لأعدائهم من اليهود ، إنها تذكرة لهم بأن الله هو وليهم ، وليس لهم من دون الله وليٌ ولا نصير .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

- يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَّبِعِ

الْكَفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ [البقرة : ١٠٨]

القصة :

قصة نزولها ، يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :
 نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن كعب ، ورهط من قريش ، قالوا : يا
 محمد ، اجعل لنا الصفا ذهباً ، ووسَّع لنا أرض مكة ، وفجّر الأنهار خلالها
 تفجيراً ، نؤمن بك ، قال : فأنزل الله تعالى هذه الآية :
 أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ
 [البقرة : ١٠٨] وفي رواية له أخرى يقول فيها :

قال رافع بن خزيمة ، ووهب بن زيد ، لرسول الله ، ﷺ : يا محمد ، ائتنا
 بكتاب ، تنزله علينا من السماء نقرؤه ، أو فجّر لنا الأنهار نتبعك ، ونصدقك ،
 فأنزل الله تعالى الآية .

وقال المفسرون في قصة هذه الآية :

إن اليهود وغيرهم من المشركين ، تمنوا على رسول الله - ﷺ - فممن قائل :
 يأتينا بكتاب جملة من السماء ، كما أتى موسى بالتوراة ، ومن قائل يقول : وهو
 عبد الله بن أبي أمية المخزومي : ائتنا بكتاب من السماء ، فيه : من رب
 العالمين ، إلى ابن أبي أمية ، اعلم أني أرسلت محمداً إلى الناس . ومن قائل يقول :
 لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً - فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومن هنا نعلم : أن الآية الكريمة وردت في سياق الاستنكار ، استنكار
 الله على المؤمنين الذين يتشبهون بقوم موسى ، من اليهود في بعض ما عرفوا به
 من تعنت ، وتكذيب ، وعناد ، وسؤال عما لا يُعنيهم .

ونحن نسمع القرآن الكريم ينهى المؤمنين عن إثارة أسئلة لا جدوى من
 ورائها ، ولا منفعة تعود عليها .

وذلك في مثل قوله تعالى :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوَكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا
عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمْ

[المائدة : ١٠١]

أي لا تسألوا عنها قبل حدوثها، بل الأولى بكم أن تسألوا عن تفصيلها
بعد نزولها ، حتى يتضح لكم المقصود منها .
كما جاءت إرشادات الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - متمشية تماماً
مع النهي القرآني، وذلك في مثل قوله - ﷺ - :

(إن أعظم المسلمين جرماً ، من سأل عن شيء ، لم يحرم ، فحرم من أجل
مسألته). كما جاء في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة، أن رسول الله -
ﷺ - كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال. ذلك؛ لأن
التعرض للسؤال الذي لا يفيد سائله ، قد يوقعه في حرج وأولى بالمؤمن أن يلتزم
بتنفيذ ما يؤمر به ، أو ينهى عنه .

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال :

(ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم، بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على
أنبيائهم ، فإن أمرتكم بأمر ، فاتوا منه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شيء
فاجتنبوه).

ولعل هذا الحديث الشريف، كان بصدد إخبار النبي - ﷺ - المسلمين
بقوله : (إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : كل عام يا رسول
الله ؟ فسكت عنه رسول الله - ﷺ - ثلاثاً . ثم قال : لا ، ولو قلت نعم
لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم ثم قال : ذروني ما تركتكم ..) الحديث -

لذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله - ﷺ - عن شيء ،
فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من البادية، فيسأله ونحن نسمع .ومن هذا نعلم :
أن رسول الله - ﷺ - أدب أصحابه . بأدب القرآن، فحين وعوا قوله تعالى :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوَكُمْ [المائدة : ١٠١]

حتى نفر وامن كثرة السؤال ، والنبس عما خفي ، ما لم تبد لهم فيه مصلحة ظاهرة ، وذلك

حتى لا يقفوا في شدة من التكاليف ، ولو كان في تساؤلهم ما يُشبع رغبتهم في العلم وحبهم للتعلم

وذلك ، حتى لا يكونوا كبنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ . وكان من أمر لحاجتهم في السؤال عن البقرة ما نعه عليهم القرآن في سورة البقرة ، حيث قادوا أنفسهم إلى الهلاك بعد أن أوقعوها في المشقات ؛ فقد طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - أن يريهم الله جهرة ، قال مجاهد : سألت قريش رسول الله - ﷺ - أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، فقال لهم : وهو لكم كالمائدة لبني إِسْرَائِيلَ ، فأبوا ، ورُعبوا .

إن السؤال إذا خالطه تعنت ، نهى عنه القرآن الكريم ، وحذّر المسلمين من الوقوع فيه ، حتى لا يكونوا كبنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَسَاءُوا الْأَدبَ مَعَ نَبِيِّهِمْ فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ وَخِيمَةً .

ولقد عمد أهل الكتاب إلى سؤال النبي - ﷺ - بما يعجزه في نظرهم ، متوهمين أنهم بهذه اللجاجة سيخرجونه ، بدافع مكرهم وخبث نياتهم ، ولكن المؤمنين أرفع بإيمانهم من أن يكونوا مثلهم لأن الاسلام هذبهم ، ورباهم على خلقه ، وعلمهم متى يسألون ومتى يسكتون ، وهم في حالتهم مسلمون مُدْعِنُونَ ، مطيعون ، فكانوا نماذج طيبة من المهذبين المؤدبين والمتعلمين . والله تعالى أرحم بعباده المؤمنين من أن ينزل بهم مقته ، كما أنزله على بني إِسْرَائِيلَ من قبل ، إذ أهلكهم بصاعقة من عنده ، كما يفهم من قوله تعالى في سورة النساء .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

[النساء : ١٥٣] .

إن في التشبه بهؤلاء القوم الضالين المتعنتين خروجاً عن دائرة الهدى ، إلى بقاء الضلال - اختياراً للكفر بعد الإيمان . وفعلاً ، قد استبدلوا إيمانهم بكفر ، وهداهم بضلال . ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم، كما سُئِلَ موسى من قبل .

ومن يتبدل الكفر بالإيمان ، فقد ضلّ سواء السبيل ﴿

لقد كان هذا حال الذين عدلوا عن تصديق أنبيائهم ، ورفضوا طاعتهم ، وأبوا الانقياد لهم ، فرفضوا بذلك نعمةً من الله سيقت اليهم . وهؤلاء ينعى عليهم القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة ابراهيم :

* أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾
جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ [ابراهيم : ٢٨]

إنها عاقبة هؤلاء المكذبين الضالين ، نهاية بني إسرائيل ، الذين عنتهم الآية الكريمة .

لقد حاول هؤلاء الضالون المضلون أن يقودوا المسلمين نحو الهاوية بما نشره بينهم من شكوك وريب ، ثم حاولوا أن يربطوهم إلى عجلتهم ، ولكن هيئات ، فإيمانهم عصمة لهم من الانقياد لشياطين الشر ، لأعداء الحق والخير ، لليهود الذين باؤوا بغضب الله ، ولعنته ، إن المسلمين في حمى عن أن ينالهم أعداء الله . ذلك ، لأن هاديبهم قرآنهم ، فأنى لهم أن يلتمسوا الهدى لدى من فقدوه ، بينما بأيديهم مفتاح النور .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية : قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَدَكْثِيرٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ؕ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ [البقرة : ١٠٩]

القصة :

قصة نزولها ، يرويها ابن عباس (رضي الله عنهما) بقوله :

إن نفرأ من اليهود قالوا للمسلمين بعد موقعة بدر: ألم تروأ إلى ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا، فهو خير لكم.. قال : فأنزل الله الآية . أما الزهري ، فيقول في قصة نزولها .

إن كعب بن الأشرف اليهودي ، كان شاعراً، وكان يهجو النبي - ﷺ - ويحرض عليه كفأر قريش في شعره، وكان المشركون واليهود في المدينة حين قدمها رسول الله - ﷺ - يؤذون النبي وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله نبيه بالصبر على أذاهم ، والعفو عنهم ، وفيهم نزلت الآية :

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا

الى قوله تعالى : فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ [البقرة : ١٠٩] وفيها يقول بعض المفسرين :

إن حيي بن أخطب، وأخاه أبا ياسر بن أخطب ، كانا من أشد اليهود حسداً للعرب، إذ خصهم الله برسوله محمد، فكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الآية. كما يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية .:

إن رسولاً أمياً، يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل ، والآيات، ثم يُصدّق بذلك كلة مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحبساً وبغياً ، ولذلك قال الله تعالى في وصفهم : كفاراً ، وبين السر في موقفهم المخجل بقوله تعالى: ﴿حسداً من عند أنفسهم، من بعد ما تبين لهم الحق﴾

حقاً ، لقد تبين لهم الحق، الحق الذي أضاء لهم الطريق، ولكنهم آثروا عليه طريق الباطل طريق الظلام، أخفوا الحق، ونأوا عنه، إذ حملهم صدهم عنه على أن يجحدوا، فكنتموا ما أمرهم الله ببيانه للناس، إذ تبين لهم يقيناً أن محمداً - ﷺ - نبي آخر الزمان، وجدوا صفته في التوراة ، كما وجدها من بعدهم النصرى في إنجيلهم ، ولكنهم كفروا به بدافع الحسد والبغى ، حسداً للعرب أن يبعث منهم ويحرموا هم من شرف بعثته في بني إسرائيل - وبغياً حين خرجوا على تعاليم كتابهم التوراة كما خرج من بعدهم النصرى على تعاليم إنجيلهم ،

فاشتركوا جميعاً في أحس ما يوصف به إنسان ، من كفر وحسد ، مما استحقوا به توبيخ القرآن الكريم أبلغ توبيخ ، ولومهم أشد اللوم .

بينما شرع للنبي - صلوات الله وسلامه عليه - وللمؤمنين معه ما هم عليه من التصديق والإيمان ، بما أنزل الله على رسوله من قرآن وما أنزله من قبل على إخوانه السابقين من كتب ، فقال سبحانه في حقهم وحقهم :

ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ؕ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ؕ آمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَئِكْتِهِ ؕ وَكُتُبِهِ ؕ وَرُسُلِهِ ؕ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؕ وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؕ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة : ٢٨٥]

فخصَّهم بكرامته وجزيل ثوابه ، وجعلهم بذلك خير الأمم .

أما اليهود فهم بحسدهم وحقدهم الدفين المعبر عنه في آيتنا بقوله تعالى : ﴿حَسَدًا مِمَّنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فما هو إلا انفعال نفسي ، مصور لقلوبهم السوداء ، وطباعهم الخسيسة ، فقد فاضت بحسدهم نفوسهم اللثيمة ضد الإسلام وأهله من قديم ، وما زالت تفيض .

ونحن نسمع القرآن في مواطن كثيرة من سوره وآياته ينعي عليهم أخلاقهم الدنيئة ، ونفسياتهم العلييلة ، ثم نسمعه وقد أبان عن كيدهم وكشف عن لؤمهم ليعرفهم المسلمون على حقيقتهم ويحذروهم فلا يقعوا في شراكهم ، ولا يستمعوا الى أراجيفهم وشائعاتهم إذ أنهم يبذلون قصارى جهدهم لزعزعة العقيدة في نفوس المسلمين ؛ لأنهم يرونهم الحصن المنيع الذي لا يستطيعون معه أن يبقوا على سيادتهم كما أنهم أدركوا أن دينهم هو الصخرة الصلدة التي تعوقهم دون فرض سلطانهم عليهم ، وأن قرآنهم هو الحائل العنيف بينهم وبين ما يأملون من توسع وأطماع على حساب المسلمين .

لقد أنقذ الإيمان المسلمين من الوقوع في جباثلهم كما ميزهم عليهم وعلى غيرهم بأجلّ نعمة هي أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، ومن هنا كان حسد اليهود متجلياً في كل حركة مريبة يقومون بها ضد المسلمين ، إن خفية أم علانية ، ومع

أن أمرهم قد كشفه القرآن الكريم للمسلمين ، وعراهم من ثياب الجبن التي يتسترون خلفها فإننا نجد أن القرآن الكريم لم يسمح للمسلمين أن ينزلوا إلى دركهم ، إلى مستوى الانتقام الشخصي منهم ، بل رفعهم إلى أرفع منزلة من العفو ، وعدم مقابلة الشر بمثله ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

كما نفهم ذلك من خاتمة آيتنا المباركة بقول الحق تبارك وتعالى للمسلمين : ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، إن الله على كل شيء قدير﴾ إن هذا العفو ، وذلك الصفح ، وهما من شيم المسلمين ، كانا لفترة خاصة ، إذ نسخا كما جاء في تفسير ابن كثير بقوله تعالى :

فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
[التوبة : ٥]

ولعل هذا ما يوحي به قوله تعالى في نهاية الآية :

قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
[التوبة : ٩]

فالنفس اللثيمة هي التي يملؤها الحقد ، وتمني الشر للغير ، والرغبة في سلب الخير من الذين أنعم الله عليهم بالهداية .

ذلك ، لأن النفوس الشريرة دائماً عن الخير نائية وعن الهدى راغبة ، وفي الضلال متردية .

وما على المسلمين إذن إلا أن يمشوا في الطريق التي اختارها الله لهم وأن يلتزموا بالسير على صراطه المستقيم ، حتى يصلوا إلى الغاية سالين ، غير متلفتين إلى الوراء ، أو مهتمين بكل كلب ينبح ، متمثلين بقول الله تعالى :

وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
[الأنعام : ١٥٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية : قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
[البقرة : ١١٣]

القصة :

قصة نزولها ، يقول فيها المفسرون :

نزلت الآية في يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ، وذلك أن وفد نجران ، لما قدموا على رسول الله - ﷺ - اتاهم أحبار اليهود، فتناظروا، حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين ، وكفروا بعبسى والإنجيل، ثم قالت لهم النصارى : ما أنتم على شيء من الدين ، فكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله الآية .

يؤيد هذا الرأي قولُ ابن عباس - رضي الله عنهما - فيما رواه عكرمة بقوله :

لما قدم أهل نجران من النصارى، على رسول الله - ﷺ - اتتهم أحبار اليهود فتنازعوا، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء، وكفر بعبسى والإنجيل، فقال رجل من أهل نجران لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى في ذلك .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرِيُّ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ

[البقرة : ١١٣]

ولا شك أن كلاً من الفريقين يتلو في كتابه ما يدعوه إلى تصديق من كفر به، ولكن العناد والمكابرة والغيرة المهلكة كلها عوامل دفعت اليهود إلى الكفر بعبسى، متجاهلين العهد الذي أخذه الله عليهم على لسان نبيهم موسى بالتصديق بعبسى، وهكذا كان الحال مع النصارى وبأيديهم الإنجيل الذي دعاهم إلى التصديق بما جاء بالتوراة من قبل من عند الله. ولكن كل كفر بما جاء به صاحبه من عند الله .

وإن كان يفهم بأن في اتهام كل من الفريقين الفريق الآخر بأنه ليس على شيء، ما يوحي بأنهم كانوا في أول عهدهم على شيء ، ولكنهم أضاعوه، حين تفرقوا، وابتدعوا، وغيروا، وحرّفوا.

وهذا ما استند عليه البعض في القول بأن كلاً من الفريقين قد صدق فيما

رمى به الفريق الآخر ، إذ أضحى على لا شيء - إن صح هذا التعبير - ولكن سياق الآية يفيد ذمهم على ما قالوه على خلاف ما علموه .

ومن هنا نفهم : أن أهل الكتاب من النصارى واليهود كانوا متباغضين مُتعادين ، إذ أن كل طائفة منها كانت تقرأ في كتابها ما أخذه الله على لسان موسى بالتصديق بعيسى ومحمد ، وعلى لسان عيسى بالتصديق بمحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، ولا شك أن عهد النبي عهدٌ على أمته يجب احترامه والالتزام به ، لأنه أساساً عهد الله ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ .

والحق يقال : أن هؤلاء اليهود والنصارى كانوا - في عصر أنبيائهم - أقلّ تطرفاً مما صاروا إليه ، إذ كانوا على شيء من علم الكتاب كانوا يتلونه ، ويعلمون شريعة الله المنزلة في كل من التوراة والإنجيل ولم يكونوا جاحدين له كل الجحود كما صار شأنهم فيما بعد .

وهذا ما نفهمه من قوله تعالى في هذه الآية : ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ ولكنهم أمسوا جاحدين لكل شيء ، منكرين كل شيء «حتى إن القرآن الكريم ينعى على غيرهم أن ارتكسوا أو كادوا أن يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء من قبلهم ، فقال تعالى في تنمة الآية الكريمة : ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ .

يقول ابن جريج : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أمم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقبل التوراة والإنجيل وإن كان السدي رحمه الله - يقول : إنهم هم مشركو العرب ، قالوا : ليس محمد على شيء .

وقيل : إنها عامة تنطبق على جميع هؤلاء الجاحدين ، إذ ليس هناك ما يعين واحداً منهم على سبيل التخصيص .

ولكن الرأي الراجح يذهب إلى أنهم الأميون من العرب ، الذين لم يكن لهم كتاب وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى ، من الفرقة والتقاذف بالتهم ، والتمسك بخرافات وأساطير لا يقرّها عقل سليم ، كانوا بعيدين عن الدينين المعروفين لديهم ، دين اليهود ، ودين النصارى ، ويفضلون عليها ما هم

مرتكسون فيه من وثنية عمياء، ومع هذا فقد كانوا يقولون إن اليهود والنصارى ليسوا على شيء .

إن موقف القرآن الكريم من هذه الدعاوى والأقاويل واضح صريح في نهاية الآية الكريمة حين يقول الله تعالى :

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
[البقرة : ١١٣]

فحكم الله عدل، والأمور جميعها صائرة إليه، وإرجاع الأمور إلى الله أسلم وسيلة للصمود في مواجهة قوم لا يعتمدون في ادعاءاتهم على حجة مقنعة، أو منطق سليم، ولا يستندون في مناظراتهم على دليل أو برهان .

إنهم بمنطقهم هذا يدللون جميعاً على أنهم فعلاً ليسوا على شيء من علم أو عقل أو حسن سلوك .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا
أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي**

الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾
[البقرة : ١١٤]

القصة :

قصة نزولها ، يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :

إن قريشاً منعت النبي - ﷺ - من الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام،
فأنزل الله تعالى : ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه . . .﴾
(الآية)

أما ابن جرير فيقول : نزلت في المشركين حين صدّوا رسول الله - ﷺ -
وأصحابه عن مكة يوم الحديبية .

وهناك رواية أخرى لابن عباس - رضي الله عنها - يقول فيها .
نزلت في ططاوس الرومي وأصحابه من النصارى ، وذلك أنهم غزوا بني
إسرائيل ، فقتلوا مقاتليهم ، وسبوا ذراريهم ، وحرقوا التوراة ، وخرّبوا بيت
المقدس ، وقذفوا فيه الجيف .

وقريب من هذه الرواية رواية قتادة وجاء فيها : إن باختصر وأصحابه
غزوا اليهود ، وخرّبوا بيت المقدس ، وأعانهم على ذلك النصارى من أهل
الروم .

وأياً كان السبب ، فالروايات جميعها متفقة على أن أعداء الدعوة
الإسلامية ، سواء كانوا مشركين أم أهل كتاب ، كانوا يسعون جاهدين إلى صدّ
المسلمين عن التوجّه في صلاتهم إلى الكعبة أول بيت وضع للناس ، وبخاصة
اليهود ، الذين هالهم أن يصرف الله المسلمين عن التوجه إلى المسجد الأقصى
بالمقدس إلى البيت العتيق بمكة ، فراحوا يُرَوِّجون شائعاتهم المغرضة .

ولكن ابن جرير يُرجّح الرأي القائل : بأن قريشاً لم تسع في خراب
الكعبة ، كما سعى الروم في تخريب بيت المقدس .

أما ابن عباس فيؤيد الرأي الذاهب إلى أن المقصودين هم المشركون لأن
النصارى إذا منعت اليهود من الصلاة في بيت المقدس كان ذلك معناه أن دينهم
أقدم من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ
ذاك ، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك لأنهم عصوا
الله واعتدوا على الحرمات ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود
وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ .

وكما جاء في تفسير ابن كثير - رحمه الله - : وأيضاً فإنه تعالى لما وجّه الذمّ في
حق اليهود والنصارى ، شرع في ذمّ المشركين الذين أخرجوا رسول الله - ﷺ -
من مكة ، ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام . وقال ردّاً على من قال : إنه
ليس المقصود بهم المشركين .

وأما اعتماده على أن قریشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأثي خراب أعظم مما فعلوه، أخرجوا منها رسول الله - ﷺ - واستحذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال الله تعالى :

وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الأنفال : ٣٤]

ولكنني أرى أن الحكم عام، يشمل كل من صد عن بيوت الله، وأداء مشاعر العبادات فيها بأي لون من ألوان الصد. إن الحكم بالظلم عام ينطبق على كل من أسهم في منع مساجد الله أن يذكر فيها اسم الله، بغية خرابها، وإخلائها من عبادة الله وعمارها المصلين، فعبادة الله فيها هو عمارها، ونورها. لذا جعل الله الجزاء المترتب على هذا العمل جزاءً لائقاً بهؤلاء الذين استحقوا غضب الله ومقته، استحقوا الطرد والحرم، الطرد من رحمة الله، والحرم من الأمن في هذه البيوت، إلا أن يلجؤوا إليها محتمين برحابتها من العقوبة التي تطاردهم، كما يفهم من قوله تعالى :

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [البقرة : ١١٤]

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - إن الخير هنا في معنى الطلب، وعليه يكون المعنى : لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا بهدنة أو جزية. ولذا ؛ فإن رسول الله - ﷺ - حين فتح الله عليه مكة في العام القابل - سنة تسع من الهجرة، أمر من ينادي برحاب منى : ﴿ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان ومن كان له أجل، فأجله إلى مدته﴾. وكان هذا تصديقاً وتنفيذاً لقوله تعالى : ﴿يأياها الذين آمنوا إنما المشركون

نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة : ٢٨] ويقول بعض المفسرين في هذا الجزء من الآية الكريمة : ﴿ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين﴾ متهيبين من

المؤمنين أن يبطشوا بهم ، يعني أنه كان أحرى بهم هذا الوضع إذ هو الذي يناسبهم .

وفي هذا بشرى من الله تعالى للمسلمين ، بأنهم سيظهرون على المشركين وأنه تعالى سيعلي شأن بيوته (المساجد) في أرضه ، وأنه سبحانه سيُدَلّ المشركين حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفاً من أن يؤخذ بقصاص أو بعقاب .

ولعل أقرب ما يكون مناسباً لسياق الآية ما قيل في معنى قوله تعالى :

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ^ج
[البقرة : ١١٤]

أي ما ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا في خوف من الله وخشوع لعظمته في بيته .

ولعلّ هذا هو اللائق بمهابة وجلال بيوت الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ^ج فَأَيْنَمَا تُولُوا^ج فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ^ج إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ

[البقرة : ١١٥]

عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

القصة :

قصة نزولها يرويها عطاء بقوله :

إن النجاشي لما توفى ، قال جبريل للنبي - ﷺ - إن النجاشي توفى ، فصل عليه ، فأمر النبي - ﷺ - أصحابه أن يحضروا وصقهم ، ثم تقدم رسول الله - ﷺ - فقال أصحابه في أنفسهم : كيف نصلي على رجل مات وهو يصلي إلى غير قبلتنا ؟ وكان النجاشي يصلي إلى بيت المقدس حتى مات ، وقد صرفت القبلة إلى الكعبة فأنزل الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فأينما تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ . أما ابن عباس - رضي الله عنهما - فيرى أن هذه الآية منسوخة بقوله

تعالى ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ وقال : أول ما نُسَخ من القرآن شيئا منها القبلة ، قال تعالى : ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ فصلَّى رسول الله - ﷺ - نحو بيت المقدس ، ثم صرفه الله تعالى إلى البيت العتيق .

وفي رواية ابن أبي طلحة : أن رسول الله - ﷺ - لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها بضعة عشر شهراً ، وكان رسول الله - ﷺ - يَحْنُ إلى قبلة إبراهيم - فلما صرفه الله إليها ارتاب اليهود ، وقالوا : ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى :

فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ

[البقرة : ١١٥]

أما عبد الله بن عامر بن ربيعة فيقول :
كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي سَفَرٍ ، فِي لَيْلَةٍ مُعْتَمَةٍ فَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ الْقِبْلَةَ . فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مَنَّا عَلَى حِيَالِهِ . فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ، ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَنَزَلَتِ الْآيَةُ : « فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ » .

أما ابن عمر - رضي الله عنهما - فيقول : كان النبي - ﷺ - يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ تَطَوُّعًا ، أَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ ، وَهُوَ قَادِمٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عُمَرَ : ﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ . . . الْآيَةَ . وَقَالَ : فِي هَذَا نَزَلَتْ .

ويذهب إلى هذا الرأي ابن جرير وآخرون ، إذ قالوا : أنزلت الآية على رسول الله - ﷺ - إِذْ نَأَى مِنَ اللَّهِ أَنْ يُصَلِّيَ الْمَتَطَوِّعَ حَيْثُ تَوَجَّهَ مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ ، فِي مَسِيرِهِ ، فِي سَفَرِهِ ، فِي حَالِ خَوْفِهِ . وَهَنَّاكَ رَوَايَةٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْإِنصَارِيِّ يَقُولُ فِيهَا :

بعث رسول الله - ﷺ - سرية كنت فيها ، فأصابتنا ظلمة ، فلم نعرف القبلة ، فقالت الطائفة منّا ، قد عرفنا القبلة هي ههنا ، قبل الشمال ، فصلُّوا ، وخطووا خطوطاً ، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة ، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي - ﷺ - فسكت ، وأنزل الله تعالى :

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ

[البقرة: ١١٥]

وأيّاً كان الرأي، فإن المتفق عليه أن الآية جاءت ردّاً على تضليل اليهود إذ ادّعوا متوهمين أن صلاة المسلمين متجهين إلى بيت المقدس قبل ان يحولوا إلى البيت العتيق، كانت باطلة وضائعة. والآية الكريمة تردّ عليهم زعمهم، مقرّرةً أن كل اتجاه إلى الله قبلة، فوجه الله تعالى لا حدود مكانية له. أينما توجه عبد إليه، فالله أمامه، «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله».

قال مجاهد :

لما نزلت آية: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ قالوا: إلى أين؟ فنزلت .

وأما تخصيص قبلة معيّنة في الصلاة فهو توجيه من الله تعالى . في الالتزام به طاعة له وامتنال . وليس المقصود أن وجه الله سبحانه وتعالى في وجهة دون أخرى، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فلله المشرق والمغرب جميعاً، فأينما وليّ العبد وجهه في دعائه فهناك وجه الله الذي يسمع دعاءه ويستجيب له .

والله واسع عليم ، يسع بفضله جميع خلقه ، يسعهم بالكفاية والفضل والجلود والغنى ، عليم بأحوالهم الخفية منها والعلنية، فعلمه شامل وتام ، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، عليم بقلوب عباده ونياتهم، ودوافع اتجاهاتهم حقاً ﴿إن الله واسع عليم﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ
اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ
مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

[البقرة: ١٢٠]

القصة :

قصة نزولها يرويها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :
إن يهود المدينة ، ونصارى نجران ، كانوا يرجون أن يُصلي النبي - ﷺ -
إلى قبلتهم ، بينما صرف الله القبلة إلى الكعبة المشرفة ، فشق ذلك عليهم ،
وهالهم ألا يوافقهم على دينهم ، فأنزل الله الآية : « ولن ترضى عنك اليهود ولا
النصارى حتى تتبع ملتهم .. الآية .

أما المفسرون فيقولون :

إنهم كانوا يسألون النبي - ﷺ - الهدنة ، ويعدونهم أنهم يتبعونه إذا هادنهم
وأهلهم . فأنزل الله الآية .

ويعود ابن عباس - رضي الله عنهما - فيقرر أن الآية نزلت في القبلة حين
طمع اليهود ، ونصارى نجران أن يتجه رسول الله - ﷺ - إلى قبلتهم - بيت
المقدس - وهذا ما يتفق مع أمانى هؤلاء القوم الذين لا يدعون فرصة إلا
انتهزوها لمحاربة هذا الدين ، فحاكوا ضده الشباك الخفية كثيراً والظاهرة قليلاً
ليوقعوا المسلمين في حبال شكوكهم ودعاياتهم . فكان من مخططاتهم أنهم أخذوا
يخلطون في أذهان المسلمين الحقيقة بأوهامهم . وتوجه النبي - ﷺ - إلى قبلتهم
كان خطوة أولى من مخططاتهم تليها خطوات ، هي في تقديرهم هدم وبناء هدم
بأول ضربة من معاولهم بغية القضاء على هذا الدين الجديد . وزلزلته حتى لا يظل
مستقلاً بذاتيته ، غير متأثر بأوهامهم وشائعاتهم ، إذ حاولوا أن يجروهم إلى عجلتهم
ليتبعوهم في اتجاههم -

كما كان بناءً في نظرهم ، بناء ما تبقى من حطام دينهم الذي قوضوه
بأيدي أبحارهم ، الذين حرفوا كتابهم ، وزيفوا توراتهم حسب أوهامهم ، ووفق
ما يتفق ومصالحهم المادية الشخصية .

يقول ابن جرير في هذه الآية :

المقصود بقوله جل ثناؤه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى
تتبع ملتهم » فليست اليهود يا محمد ، ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع ما

يعرضونه مما يرضيهم ويوافق أهواءهم ، وأقبل على طلب رضى الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، ولكن قل لهم ولغيرهم: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ إنه الهدى الذي بعثك الله به ، إنه الدين القويم الكامل الشامل. ومن عجب أن اليهود والنصارى بعد أن زيفوا كتابها، وشوهوا معالم دينها لم يرضها ما جاء به محمد من ربه من هدى ، جمع عليه قوماً كانوا ضالين. لم يرق لهم هذا الدين الذي التفّ حول نوره المسلمون ، بعد أن كانوا في جهلهم يتخبطون .

لقد زعموا أن بقايا دينها ينبغي أن يتشبث بها المسلمون وبنبيهم ، وتركوا دينهم وكتابهم .

والمعتقد أنه لو تحققت لهم أمانيتهم الخادعة ما رضوا، ولن يرضوا، فقد ملأ الحقد والسخط قلوبهم، فهم بما يقولون مناؤون للمسلمين، يحاولون ربطهم بعجلتهم ، وهنا تكون الطامة ، وهنا تمحي الشخصية الاسلامية في شخصية أعدائهم .

لذا ، كان الإرشاد الإلهي لنبيه عليه الصلاة والسلام متضمنا تحذيرا وترشيدا له وللمسلمين، يوجههم ، إلى ما فيه خيرهم الممثل في رفضهم الاستجابة لأعدائهم ، مكتفين بطلب ما يرضى الله ، والالتزام بهديه .

وليس ذلك فحسب ، بل إن الهدى السماوي يدعوهم إلى اتباع ما أنزله على رسوله من الحق . هذا الحق المقرر في الكتابين السماويين السابقين وبالتالي، لا حرص على رضاهم ، ولا صداقة معهم ، ولا مودة لهم ، إذا أدت إلى خروج عن نهج الله . ويعد عن سبيل الله .

﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ، مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ .

إنه تهديد ! ولن ؟ لنبيّ الله وحبّيه ! وأولى أن يكون لمن اتبعه من المسلمين، حتى لا يميل أحد عن الهدى، هدى الله الذي لا هدى سواه، فالنبي - صلوات الله عليه وسلامه - معصوم عن اتباع الهوى، وحيث وجّه إليه الخطاب

فالأمر لأمته . حتى لا يتبع أحد منهم طرائق هؤلاء - بعد أن علمهم الله ،
وأنقذهم من الظلام ، ظلام الجهل . كما أفاض عليهم النور ، نور العلم
والإيمان .

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

[البقرة : ١٢١]

القصة :

قصة نزولها ، يرويها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :
نزلت الآية في أصحاب السفينة ، الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من
أرض الحبشة وكانوا أربعين رجلاً من أهل الحبشة وأهل الشام .
أما الضحاك فيقول : نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .
وأيّاً كان السبب ، سبب نزولها ، فإن الآية الكريمة تقرّر حقيقة مسلماً بها ،
هي أن الذين تجردوا عن أهوائهم من أهل الكتاب ، وحافظوا على ما جاءهم
من عند الله ، وقدسوا حرمة أن تنتهك بالاعتداء عليه بالتبديل أو كتابة شيء
من عند أنفسهم ، إن هؤلاء قوم ملتزمون ، يبدو ذلك في أنهم يتلون كتابهم حقّ
تلاوته ، لا يحرفون فيه ولا يُزيّفون ، ولا ينكرون منه شيئاً ، ولا يستأثرون
بعلمه ، دون الناس منهم . وحينئذ يمكن القول بأن أفعالهم كانت متفقة وتعاليم
كتابهم ، منقّدة لما يدعوهم إليه إيمانهم ، مُعلنة الحق الذي جاء به رسول الله -
ﷺ - وهؤلاء منهم قلة لم يلبثوا أن آمنوا بالدين الذي جاء مكتملاً لما سبقه
وبالنبي الذي ختم الله به رسله ، وفي مقابل هؤلاء كثرة ، نجدهم جاحدين لما
في كتابهم من بُشرى بمبعث محمد ، ودعوة إلى اتباعه عند إدراكه ، وهؤلاء قوم
خاسرون إذ لا خسارة أفدح من خسارة الإيمان ، ولا بوار أفظع من كتمان ما
أمر الله به أن يُعلم . يقول قتادة : إن الآية الكريمة نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ

وفي قوله تعالى

يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ

[البقرة : ١٢١]

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا مرَّ أحدهم بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مرَّ بذكر النار تعوذ بالله من النار . كما يقول ابن مسعود (رضي الله عنه) في معنى «يتلونه حقَّ تلاوته» : والذي نفسي بيده إن حقَّ تلاوته أن يُحَلَّ حلاله ويحرَّم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، وألا يحرف الكلم عن مواضعه ، وألا يتأول منه شيئاً من غير تأويله .

كما يقول الحسن البصري رضي الله عنه في معنى هذا الجزء من الآية : يعملون بحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكفون ما أشكل عليهم إلى عالمه - أما ابن عمر رضي الله عنهما فيقول في «يتلونه حق تلاوته» : يتبعونه حق اتباعه قال أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة :

وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أيضاً ، فيمن يتلونه حقَّ تلاوته : هم الذين إذا مرَّوا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مرَّوا بآية عذاب استعذوا منها . وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل الله ، وإذا مرَّ بآية عذاب تعوذ بالله . ومن هنا نعلم : أن القرآن الكريم يُخبر عن هؤلاء الذين يتلون كتاب الله حقَّ تلاوته بقوله تعالى :

أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

[البقرة : ١٢١]

فمن أقام كتابه من أهل الكتب السماوية المنزلة على أنبياء الله ورسله المتقدمين حق إقامته ، فإن ذلك يؤدي به بالضرورة إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ مصداقاً لقوله تعالى :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ

[المائدة : ٦٨]

حقاً ، إنهم إذا أقاموها ، وآمنوا بما فيها ، وصدّقوا بما جاء بها من إخبار عن النبي محمد ﷺ من مبعثه ونعته ، والأمر باتباعه ، ونصره ، ومؤازرته ، فإن

ذلك يقودهم حتماً إلى الإيمان به، والدخول في دينه ، وكانوا بذلك من الذين قال الله فيهم :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

[الأعراف : ١٥٧]

وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى أيضاً:

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۗ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

[البقرة: ١٢١]

وصدق رسول الله ﷺ القائل : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار) ولكن ، ما على الرسول إلا البلاغ .

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ ۗ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

[آل عمران : ٢٠]

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۚ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

[البقرة ١٢٥]

القصة :

قصة نزولها يرويها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

وافقتُ ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت الآية ، ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، ولو أمرت أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلتُ لمن : عسى ربه إن طلقك أن يُبدله أزواجاً خيراً منك ، فنزلت كذلك ، . رواه البخاري .

أما ابن مردويه فيروي عن جابر قوله : لما طاف النبي ﷺ قال له عمر : هذا مقام أبينا إبراهيم ؟ قال : نعم ، قال : أفلا نتخذُه مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

وفحوى ما ذكره المفسرون لهذه الآية الكريمة : أن الله سبحانه ينوّه فيها لشرف البيت ، بما وصفه به تكريماً له من أنه مثابة للناس وأنه محلُّ يأمن فيه الخائف على نفسه ، ومحطُّ تشاق إليه الأرواح . وتحنُّ إلى زيارته ، ولا تقضي منه وطراً أبداً ، ولو كثر التردد عليه ، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، « فاجعلْ أفئدة من الناس تهوي إليهم ثم إنه آمن ومن دخله كان آمناً ، كان آمناً على نفسه فلا يؤخذ بجُرم إلا أن يخرج منه . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له بأذى تصديقاً لقوله تعالى :

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ

[المائدة : ٩٧]

أي يدفع عنهم . كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض . أما مقام إبراهيم ، فهو الحرم كله ، قال ابن جريج : سألت عطاء عن تفسير قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فقال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : (ما مقام إبراهيم الذي ذكرهنا ؟ أهذا الذي في المسجد ؟ إن مقام إبراهيم الحج كله) .

وقد فسره عطاء فقال: اتسع المقام حتى شمل عرفة ومنى ورمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة ، فسئل: أفسره ابن عباس هكذا؟

قال: لا، ولكن قال: مقام إبراهيم الحج كله ، قال: أسمعت ذلك لهذا أجمع قال: نعم ، سمعته منه .

ويروي جعفر بن محمد عن أبيه أنه سمع جابراً يحدث عن حجة النبي ﷺ قال: لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم قال: أفلا نتخذه مُصَلَّى؟ فنزلت الآية: واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلَّى.

روى البخاري بسنده عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول؛

قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين . فهذا يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه اسماعيل عليه السلام به ، ليقوم فوقه ويتناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، ولعل هذا التفسير أولى من التوسع الذي ذكر آنفاً.

هذا وقد ورد أن المقام كان مُلصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يُمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك - هذا ما ذكره ابن كثير، ولكني أرجح ما روي أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه أخره من جدار الكعبة حيث هو الآن بين الكعبة وزمزم بالمقصورة المذهبة، وبعد: فإن اتخاذ البيت قبلة للمسلمين أمر طبيعي لا يُثير اعتراضاً، إنه بيت الله الذي عهد إلى عبدين صالحين من عباده بإقامته وتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود، لجميع الوافدين عليه من الحجاج ، ولأهله العاكفين فيه .

لقد أراد الله مثابة يثوب إليها كل الناس، فلا يروّعهم أحد، بل هم فيه آمنون على أرواحهم ، فهو في ذاته آمنٌ وطمأنينة وسلام لكل الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي
الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾

[البقرة : ١٣٠]

القصة :

قصة نزولها يرويها ابن عيينة - رضي الله عنه - بقوله :
رُوي أن عبد الله بن سلام ، دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام ،
فقالا له : علمنا أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد اسماعيل نبياً
اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فأسلم
سلمة ، وأبي مهاجر أن يؤمن - فنزلت الآية الكريمة . . ﴿ ومن يرغب عن ملة
إبراهيم إلا من سفه نفسه . . الخ الآية .

وبعد ، ففي تفسير الآية ، يقول ابن كثير في تفسيره :

«يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار ، فيما ابتدعوه من الشرك بالله ،
المخالف لملة إبراهيم الخليل ، إمام الحنفاء - فإنه أي إبراهيم عليه السلام - جرد
توحيد ربه تبارك وتعالى ، فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين . وتبرأ
من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه ، حتى إنه تبرأ من أبيه أزر
فقال كما حكى عنه القرآن الكريم : ﴿ يا قوم إني بريء مما تُشركون ، إني وجهتُ
وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ .

وقال أيضاً كما ذكر القرآن الكريم على لسانه : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه
وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ ذلك ؛

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾

شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾

[النحل : ١٢١]

لهذا قال الله تعالى في آيتنا هذه : ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي ظلم نفسه بسفهه ، وسوء تصرفه ، حين ترك الحق مؤثراً عليه الضلال ، وحين خالف طريق مَنْ اصطفى الله في الدنيا للهداية والرشد ، طريق خليل الرحمن ، إبراهيم الذي أنشأه ربُّه على التوحيد ، فحارب بإيمانه شرك قومه ، لم يبق لأواصر الدم بينه وبينهم حقاً إزاء عقيدة التوحيد ، لحدّ أنه تبرأ من أبيه لتصميمه على الشرك بالله فاستحق بذلك اختيار الله له في الدنيا ليخلفه في دعوة خلقه إليه ، فضلاً عما هو مدخر للصالحين من أمثاله يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وحظي الخليل بشهادة شرف من ربه حين قرّر القرآن استحقاقه لها بقوله تعالى :

وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

[البقرة : ١٣٠]

وإذن ، من خالفه ، وترك طريقته ، ونأى عن نهجه ، واتبع طريق الضلالة والغيّ ، فإنه ولا شك سفيه ، وأي سفه أعظم من سفهه ؟ قال قتادة : نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقاً ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ، إذ تبجحوا ، وادعوا أن إبراهيم كان على ملتهم ، ولكن الردّ القرآني عليهم كان عنيفاً صافعاً ومكذباً زعمهم . إذ قال الله تعالى ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين﴾

ثم أثبت القرآن أن أولياء إبراهيم هم المتبعون للحنيفية السمحاء التي جاء بها ، وكان نبينا - صلوات الله وسلامه عليه - بمادعا اليه وأصحابه باتباعهم النور الذي أنزل معه ، كانوا أولى بإبراهيم من هؤلاء المدّعين بلا مبرر أنهم أولى به مع مخالفتهم له .

﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبيّ ، والذين آمنوا، والله وليّ المؤمنين﴾ .

وبعد ، فالآية الكريمة مُوجَّهة إلى أولئك الذين ينازعون أمة محمد إمامتها ، كما نازعوا من قبل نبيها عليه الصلاة والسلام النبوة والرسالة مجادلين في قضية

مسلم بها أصلاً، هي أن الدين الخالص من الشرك لله وحده ، إنه دين إبراهيم ، أبي الأنبياء .

ولكن اليهود وأمثالهم من النصارى المحرّفين أنداد المشركين ، كلهم ملة واحدة في الكفر، إن صح أن للكفر ملة ، وهؤلاء جميعاً سفهاء ، خارجون على كل دين ، مخالفون كل دين لله ، حين نأوا عن ملة إبراهيم ، الذي اصطفاه الله ، دين إبراهيم الذي وصّى به بنيه ويعقوب ، حين قال لهم كما ذكر القرآن الكريم على لسانه :

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ الدِّينَ الْكُفْرَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

فكانت وصية نبي الله إبراهيم هذه مركزة في التمسك بالاسلام ، الدين الخالص الصافي من أي لون من ألوان الشرك ، الذي لا يوصم به إلا سفيه النفس ، ظالم نفسه، فارغ العقل من كل معنى كريم .

إن السفهاء هم الذين خالفوا ملة إبراهيم ، الذي قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ولكن جهل المشركين ، وعناد اليهود كان هو دافعهم جميعاً إلى أن يخالفوا دين إبراهيم مخالفة صريحة . مع أنه أبو الأنبياء ، وإمام الحنفاء ، وأول المسلمين - الذي كان توحيد لربه خالصاً من كل شرك ، بريئاً من أن يعبد مع الله سواه، إنه الذي خالف قومه ، حتى أباه فقال : ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ وهو الذي أعلن كلمة التوحيد ، وتحدى بيقين شرك قومه ، وحارب ما ألفه قومه من شرك حين صنعوا آلهتهم بأيديهم ثم عبدوها - ونسمع القرآن الكريم يحكى عنه قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٣٦﴾ إِلَّا

الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿١٣٧﴾ [الزخرف : ٢٦]

لذا قال الله : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ .
ومن هنا نفهم ، أن من ترك طريقته ونهجه ، وخالف ملته واتبع هواه ، وسار في شعب الضلال فهو حقاً سفيه النفس ، مُظلم العقل - ظالم نفسه أشد الظلم ، ذلك لأن الله يقول : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾

ولا شك أن كل من يميل عن الحق ، وينحرف عن الجادة ، ويزيغ في العقيدة ويعوجّ في سلوكه تكون وراء انحرافه وميله وزيفه واعوجاجه أصابع خبيثة تحركه ، تعمل في الخفاء كثيراً، وفي العلن قليلاً لتضله، وإنما ولا شك أصابع اليهود، أعداء الله ، أعداء الأنبياء أعداء كل مؤمن .

وكل الدلائل تشير إليهم فاضحة أساليبهم ، فقد أشاعوا الشك في الرسائل السماوية، فطعنوا في المسيحية ونبيّها ، وحاربوا الإسلام ورسوله ، وكادوا لأتباعه .

ولكن تدبيرهم الخبيث دائماً مكشوف ، وخططهم التخريبية دائماً مفضوحة، وأساليبهم الماكرة معروفة، مهما تَسْتَرُوا في أي زيّ، أو ارتدوا أي ثوب ، فهم هم الذين رغبوا عن الملة السمحاء ملة ابراهيم أبي الأنبياء ، وهم إذن هم السفهاء .

وهل هناك سَفَه بعد معرفة الحق والعدول عنه ؟ ورؤية النور ثم التصميم على التخبّط في الظلام ؟

ولا عجب من أمرهم ، فاللص يفضحه الضوء ، وتستره العتمة . والخفافيش لا تنتشر أبداً إلا في الظلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ [البقرة : ١٣٥]

القصة :

قصة نزولها ، يروها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله :
قال ابن صوريا اليهودي للنبي - ﷺ - ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿وقالوا

كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . . ﴿ الآية .

وهناك لابن عباس رواية أخرى يقول فيها :

نزلت في رؤوس المدينة، كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خصموا المسلمين في الدين، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله من غيرها فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بمحمد والقرآن، وبعيسى والإنجيل .

وقالت النصارى: نبينا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان، وكفرت بمحمد والقرآن، وموسى والتوراة. وقال كل واحد من المؤمنين لغيره : كن على ديننا فلا دين إلا ذلك ودعوهم إلى دينهم .

ومن هنا نعلم : أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يحاورون النبي - ﷺ - والمسلمين بمنطق عجيب، أقل ما يوصف به أنه مكابرة ومغالطة - محاولين به صرف المسلمين عن دينهم خشية إن ينتشر فيقوض سلطانهم .

وإننا نرى أن رهبان النصارى قالوا مقالة أحبار اليهود من قبل قالوا جميعاً للنبي - ﷺ - كونوا نصارى ، كما قال اليهود قبلهم لهم : كونوا هوداً ، ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾

فكانت كل طائفة تدعو إلى دينها بطريقة موحدة ، وكأنهم جميعاً يدعون قوماً لا دين لهم ولا كتاب ولا هدى يجمعهم - ولكن غاية الفريقين غير خافية، إنها محصورة في تضليل المسلمين ، وتشكيكهم في دينهم ، لا حرصاً على هدايتهم كما يزعمون . فهم ما كانوا أبداً حسب ما تشير إليه تصرفاتهم حريصين على أن يهتدي المسلمون، وما كانوا أبداً يقصدون إنقاذهم من ضلال وقعوا فيه بإسلامهم كما يزعمون، وهل كانوا هم يوماً مهتدين حتى يدعون الناس إلى الهداية، إن فاقد الشيء لا يعطيه كما يقول الأصوليون .

ولعله كان بدافع حرصهم على أن لا يكون غيرهم مهتدين وهم ضالون إذ أن الخاسر لا يرضيه أن يجد غيره ناجحاً، فهو يحاول ضمه إلى صفته المؤسفة .

وكما يزعج من كان متخبطاً في دجى الظلام أن يرى شمعة بيد مهتدي يسير في ضوئها ، ويشق طريقه في سلام ، فكذلك هؤلاء القوم يكرهون أن يتمتع بالهدى غيرهم ، ما داموا هم قد تاهوا في بيداء الضلال ، ذلك ؛ لأنهم أعداء النور ، أعداء الهدى ، حلفاء الظلام ، عشراء الضلال .

ونسمع القرآن الكريم في آيتنا هذه يجمع زعم الجماعتين الضاليتين دعاء الغواية ، تسمعه يجمع أقوالهم ، في عبارة واحدة ، حين يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وقالواكونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾.

فكانهم في ضلالهم جماعة واحدة ، هدفهم إضلال المسلمين في صورة الهداية وأخيراً نسمع الآية الكريمة في نهايتها تدعو رسول الله - ﷺ - بتوجيه من الله ، أن يرّد عليهم بكلمة واحدة جامعة لأصول العقيدة وأساس كل الأديان بقوله تعالى : ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ .

وكما يقول صاحب الظلال :

إنه إفحام لهم ، وإلجام لمحاوريهم ، فأبراهيم أبو الأنبياء ، ودينه أصل ملة الإسلام ، وأساسه توحيد الله الذي جاء به الإسلام محارباً الشرك - كما جاءت به اليهودية والنصرانية في أصلها قبل تحريفها .

وكانت دعوة رسول الله - ﷺ - محصورة في إعلان الوحدة الكبرى ، وحدة الدين ، وحدة العقيدة ، منذ دعا إبراهيم ومن بعده من الرسل والأنبياء إلى أن انتهوا إلى عيسى بن مريم . وخُتموا بمحمد عليه وعليهم جميعاً الصلاة والسلام .

ودعا رسول الله - ﷺ - أهل الكتاب إلى الإيمان بدين واحد - والدخول في الإسلام ؛ لأنه دين إبراهيم ، الذي لا خلاف عليه إلا من قَبِل من أعمتهم العصبية ، غافلين عن الحقيقة الكبرى ، التي جاءت بها جميع الأديان .

إنها قاعدة التصور الإسلامي ، الموصولة بوثق متين ، بهذا الأصل

العريق ، وهي أيضاً الكفيلة أن تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا فسيحا لكل الناس .
 ليعيشوا في كنفه آمنين إنه المجتمع الذي يربّي أفرادَه على احترام جميع الأديان ، والإيمان
 بجميع الرسل . لا يعرف دستورَه تفرقة أو عصبية ، أو عنصرية ، ولا يفضل جنساً على
 جنس ، فالناس كل الناس في نظر الإسلام سواء كلهم لآدم وآدم من تراب . لا فضل لنوع
 على نوع ، أو فرد على فرد أو مجتمع على مجتمع إلا بتقوى الله ، والعمل الصالح
 الذي يعود بالخير على خلق الله .

إنها تعاليم الإسلام ﴿ ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

صَبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

[البقرة : ١٣٨]

القصة :

قصة نزولها، يرويها ابن عباس - رضي الله عنها - بقوله :
 إن النصراني، كان إذا وُلد لأحدهم ولد ، فأق عليه سبعة أيام ، صبغوه
 في ماءٍ لهم ، يقال له : العموديّ، ليطهروه بذلك ويقولون : هذا
 طهور مكان الختان ، فإذا فعلوا ذلك ، صار الطفل نصرانياً حقاً ، فأنزل الله
 تعالى هذه الآية : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » .
 وفي رواية له أخرى ، عن طريق سعيد بن جبير ، أن رسول الله - ﷺ قال : إن
 بني إسرائيل قالوا لموسى : يا رسول الله ، هل يصبغ ربك ؟ فقال : اتقوا الله ،
 فناداه ربه : يا موسى ، سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقال : نعم ، قال : أنا أصبغ
 الألوان الأبيض والأحمر والأسود ، والألوان كلها من صبغي ، وأنزل الله على نبيه
 محمد - ﷺ - فيها كان من قولهم : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾

هذه روايته ، ولكني لا أميل إلى صحتها ، فسياق آيتنا هذه مع ما قبلها
 وما بعدها يفيد أنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على دين الله ، معتزلاً بالحق

المستمد من ربه، وبهذه العلامة التي يميّز الله بها أوليائه، فيعرفون بها بين الناس في كل مجتمعاتهم، فهي سمتهم وصبغتهم وطبيعتهم التي طبعهم الله عليها وبها، وليست هناك صبغة أخرى تدانيتها، فكل من طبع على طاعة الله فهو مخلص في عبادته مميّز بطابعه وكأنه وسام شرف يتقلده - سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ولعل الآيات السابقات على آيتنا هذه توضح هذا المعنى وتزكيه إذ يقول الحق تبارك وتعالى.

فَإِنَّ أَمْنًا بِمِثْلِ مَاءِ أَمْنِكُمْ بِهِ، فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ [البقرة : ١٣٧]

وبعد : فآيتنا هذه تتناول أمرين لهما شأنهما، الأول منها ورد على لسان الحق تبارك وتعالى مُقرراً حقيقة لامراء فيها، وليس لأحد أن يتأول فيها، فضلاً عن أن يدعيها، إنها صبغته في خلقه التي لا صبغة بعدها ولا قبلها، فمهما صبغ القوم فلن يغيروا من خلقه الله في شكل المخلوق وطبعه شيئاً، لأنها، ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾.

والأمر الثاني يتضمن حقيقة تجاوية نطقت بها بقية الآية الكريمة حين قال الحق تبارك وتعالى على لسان عباده المؤمنين المخلصين له العبادة ﴿ونحن له عابدون﴾

ولا شك أنه كله كلام الله نزل به الروح الأمين على قلب محمد الأمين سواء كان على لسان منزله تبارك وتعالى أم على لسان أحد من خلقه إلا أنه يرجع كله إلى أصله إلى قائله إلى الله الحق .

ولكن ما أروع الاندماج بين أمرين في عبارة واحدة بلغت حد الإعجاز في الإيجاز حين قال الله «ونحن له عابدون» بعد قوله تعالى ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾

كما قال المرحوم سيد قطب في ظلاله : إنه تشريف للمؤمنين أن يلتحم

كلامهم بكلام الله ، وكله في الحقيقة كلام الله ، ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله ، والثاني حكاية عن قول المؤمنين . وجاءت الآية التالية، دافعة الحجة على هؤلاء الذين يجاجون الله ورسوله بقوله تعالى .

قُلْ أَنُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٥﴾

[الشورى : ١٥]

جاءت مبيّنة أن لا مجال للجدال في وحدانية الله، فهو رب الجميع ، ولكن إرادة الله اقتضت هداية المؤمنين إليه ، فأقروا بوحدانيته، كما اقتضت حكمته أن يُضِلَّ غيرهم حين أرادوا لأنفسهم باختيارهم الضلال فأشركوا معه غيره، وهنا ينزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ أمراً أن يحدّد الموقف بينه وبين هؤلاء الضالين حيث لم تُجد معهم مواعظ أو بيان أو تحذير ، فما عليه إذن إلا أن يقول لهم ﴿لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم﴾ .

إن أعمالهم ستعود عليهم بالوبال ولا شك لأنهم بها مشركون، أما أعمالنا نحن المسلمين، فهي واضحة سافرة مُشرقة مُشرّفة: ﴿ونحن له عابدون﴾

وعبادتنا لربنا وحده شرف لنا أي شرف ، وعزّزْ دونه كل عزّ، ثم إن الله تبارك وتعالى سيحاسب كلاً على عمله ، وعلى المخلص في عبادته الله وحده أن يستبشر بفضل الله ، ورضوانه ورحماته، أما المشرك فسيعلم أنه باء بالخسران المين .

وتقرّر نهاية الآية الكريمة حقيقة واقعة ، هي حقيقة الإخلاص وهو سرّ قبول أي عمل أو عبادة ، وبركة كل معاملة ، وإذا خلت منه حياة المرء جذبت وخربت وفسدت ، ولكن المؤمنين يقررون «ونحن له مخلصون» لأنهم يوقنون بأن للعمل المخلص ثماره الناصجة، وعمل خلا من الإخلاص عمل بلا ثمر عمل خال من كل معاني الخير وعبادة غير مُخلصة ، ضرب من اللهو والعبث .

لأن الإخلاص هو روح العمل: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ والمؤمنون حين يقررون هذه الحقيقة، يطبقونها في عبادتهم وجميع أعمالهم

سلوكاً عملياً . وهم بذلك إنما يطبقون روح دستورهم وتعاليم قرآنهم في حياتهم ، فيحققون أهداف دينهم ، ويعيشون بعقيدة خالصة، تضمّننا دينهم الخالص من الشرك، البريء من النفاق، إنه فضل الله يؤتية من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في سورة البقرة :

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ
 قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

[البقرة : ١٤٢]

القصة :

قصة نزولها ، يقول فيها المفسرون :

إنها نزلت في تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام بمكة . .
 أما البراء فيقول فيما رواه البخاري :

لما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ، فصلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله - ﷺ - يحب أن يتوجه في صلاته نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها﴾

فقال السفهاء من الناس - وهم اليهود، ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قال الله تعالى: ﴿فلله المشرق والمغرب ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾

وجاء في رواية ابن اسحق قوله : كان رسول الله - ﷺ - يُصَلِّي نحو بيت المقدس، ويُطِيل النظر في السماء بأمر الله ، فأنزل الله عليه : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فقال

رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نُصرف إلى الكعبة، فكيف بصلاتنا قبل بيت المقدس؟
فأنزل الله على نبيه - ﷺ - قوله تعالى :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ

[البقرة : ١٤٣]

وحين قال السفهاء من الناس : ﴿ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾
أنزل الله تعالى قوله : «سيقول السفهاء من الناس ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب» .

وفي الصحيحين : مات على القبلة قبل أن تتحوّل من المسجد الأقصى إلى البيت العتيق رجال ، فقالوا : ما ندري ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ .

وأخيراً يقول السديّ :

لما حُرّف النبي - ﷺ - نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة : تحير على محمد دينه ، فتوجّه بقبلته إليكم ، وعلم أنكم أهدي منه سبيلاً وأوشك أن يدخل في دينكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ .

وأياً كان السبب ، فالمقطوع به أن رسول الله - ﷺ - أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان يُصلي بمكة بين الركنين - فتكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل الصخرة . فلما هاجر إلى المدينة ، تعذّر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس .

هذه رواية ابن عباس والجمهور ، وقد أجمعوا على أن النبي - ﷺ - كان يكثر الدعاء والابتهاج إلى الله أن يوجّهه جهة الكعبة ، التي هي قبلة إبراهيم (عليه السلام) فاستجاب الله له ، وأمره بالتوجه إلى البيت العتيق فخطب رسول الله - ﷺ - فأعلمهم بذلك .

وكانت أول صلاة صلاها ، هي صلاة العصر ، كما ورد في الصحيحين وكان ذلك بمسجد بني سلمة ، ولذا سُمي (مسجد القبليتين) ومن هنا نعلم :

أن اليهود قد اتخذوا من اتجاه النبي - ﷺ - في صلاته إلى المسجد الأقصى ، وكانت قبلتهم في صلاتهم ، فاتخذوها ذريعة للاستكبار على الإذعان لدعوة الله بالدخول في الإسلام والتصديق برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، تنفيذاً لما أمروا به في التوراة .

وليتهم وقفوا عند هذا الحدّ، ولكنهم أطلقوا ألسن السوء ، فأشاعوا من أقاويلهم ما يبلبل الأفكار ، ويبثّ الشك في النفوس الضعيفة حين قالوا : ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟

كأنهم بهذا يأملون أن يدخل محمد في دينهم ، بدلاً من أن يستجيبوا لدعوة الله بالدخول في دينه بعد أن بشرتهم بمبعثه التوراة وفي الحقيقة أنه كان شاقاً على نفوسهم أن يتحوّل محمد عن قبلتهم فراحوا ينشرون الشائعات المغرضة ، والأقاويل الماكرة ، وينشرون بذور الريبة والقلق في قلوب المسلمين يحاولون تشكيكهم في دينهم ، ويزعزعون عقيدتهم بأباطيلهم حين قالوا لهم مضللين :

إذا كانت صلاتكم طوال هذه المدة إلى بيت المقدس باطلة فقد ضاعت ، وإن كانت صحيحة ، فتوجهكم في صلاتكم إلى البيت العتيق باطل .

هذا منطقتهم في محاولة تشكيك المسلمين في قبول صلاتهم السابقة وإلقاء الريبة في قلوبهم من قبول صلاتهم الحالية .

ولكنهم أصمّوا قلوبهم عن الحكمة في تحويل قبلة المسلمين التي سجّلها القرآن الكريم بقوله تعالى :

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ

ثم إنه لا جدوى مطلقاً من اتباع اليهود الهدى ، فالله بطباعهم خبير ، وبعنادهم عليم ، وحينئذ لا تُجدي معهم محاوره ، ولا يقنعهم منطوق ، إذ لا يسلمون إذا بان لهم الحق ، أو ظهرت لهم آية ، لأنهم من قبل قالوا : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأنزل علينا صاعقة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾

ثم إن الأمل منهم مقطوع، والله تبارك وتعالى يقول فيهم: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية، ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾.

ذلك؛ لأنهم قوم مكابرون، معاندون، وفي الضلال دائماً سادرون.

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

وقال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ [البقرة : ١٤٣]

القصة :

قصة نزولها، يرويها ابن عباس - رضي الله عنها بقوله :

كان رجال من أصحاب رسول الله - ﷺ - قد ماتوا على القبلة الأولى ، منهم سعد بن زراره ، وأبو أمامة (أحد بني النجار) والبراء بن معرور ، وأحد بني سلمة ، وأناس آخرون .

فجاءت عشائرتهم ، فقالوا : يا رسول الله ، توفي إخوان لنا ، وهم يُصلُّون إلى القبلة الأولى ، وقد صرفك الله عنها ، إلى قبلة إبراهيم فكيف بإخواننا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ ، ثم قال الله تعالى ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ .

وذلك ، أن النبي - ﷺ - قال لجبريل - عليه السلام : وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها ، وكان يريد الكعبة ، لأنها قبلة إبراهيم ، فقال

له جبريل: إنما أنا عبد مثلك ، لا أملك شيئاً، فسل ربك أن يُحوِّلك عنها إلى قبة إبراهيم .

ثم ارتفع جبريل، وجعل رسول الله - ﷺ - يديم النظر إلى السماء، رجاء أن يأتيه جبريل بما سأله :

فأنزل الله تعالى عليه : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ . الآية .

أما البراء بن عازب ، رضي الله عنه - فيقول في رواية أبي إسحق : صلينا مع رسول الله - ﷺ - عند قدومه المدينة سبعة عشر شهراً نحو بيت المقدس ، ثم علم الله - عز وجل - هوى نبيه - ﷺ - فنزلت الآية : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها﴾ .

هذا، وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أن المقصود بها صلاتهم إلى بيت المقدس قبل ذلك رداً على اليهود الذين أشاعوا القول بأن الصلاة السابقة إلى بيت المقدس باطلة .

وكان السؤال الحائر الذي يدور في الرؤوس آنذاك : ما حالهم في ذلك وكانت آيتنا هذه هي الرد الحاسم المطمئن للقلوب الحائرة ، حين قال الحق تبارك وتعالى : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أما ابن عباس - رضي الله عنهما - فيقول في تفسيره هذه الآية : المقصود بالقبلة الأولى تصديقكم نبيكم ، واتباعكم له عند تحويل وجوهكم إلى القبلة الثانية ؛ أي سيعطيكم الله أجرهما معاً . بدليل قوله تعالى في نهاية الآية الكريمة ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ .

حقاً ، إن رحمة الله واسعة ، فقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه :

(أترون هذه طارحة ولدها في النار، وهي قادرة على ألا تطرحه ؟ فقالوا؛ لا ، يا رسول الله ، قال، فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها)

إن الله تبارك وتعالى رحيم بعباده، لا يضيع بفضلَه أجرَ عاملٍ ولقد أطاع أصحاب رسول الله ﷺ، وامتثلوا واتجهوا إلى حيث اتجه، وتحولوا معه بأمر الله حيث تحولَ فكانت طاعتهم له طاعة لله، لأنه: ﴿مَنْ يَطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

لقد كان امتثالهم واضحاً مخلصاً، ثم مات منهم من ماتَ قبل أن تُحولَ القبلة إلى البيت العتيق، حيث حقق الكريم بفضلَه لنبِيه - صلوات الله وسلامه عليه، حقَّق له أمنيته واستجاب له دعاءه في أن يتَّجه إلى بيته الحرام، لا حيث يتجه أعداء الله في الصلاة .

إن هؤلاء الذين أطاعوا الله، ثم لقوه، لن يترهم أعمالهم ولن يُضيع أجورهم .

ولئن انزعج اخوانهم وأصدقائهم وأهلهم خوفاً على مصيرهم مما جعلهم يسألون رسول الله - ﷺ - في امرهم فإن القرآن الكريم، قد هدأ من قلقهم، وطمأن خواطرهم حين قال الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

ثم كانت خاتمة الآية الكريمة تسكيناً لهم وتثبيتاً، اعتماداً على رحمة الله بعباده المؤمنين، ورأفته بهم، حين قال الله تعالى:

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

أن الصفتين الكريمتين للمولى الكريم تنزلان على الصدر المألوف برداً وسلاماً، حين يعيها القلب المؤمن المخلص .

إنها صفتا الرأفة والرحمة التي لا يخشى المؤمن معها ضياعاً، ولا بواراً ابداً، لأنها الرحمة الفيضة رحمة الله التي وسعت كل شيء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الله عز وجل في سورة البقرة :

* إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ^ط فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

[البقرة : ١٥٨]

القصة :

ترويتها السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها :

أنزلت هذه الآية في الأنصار، فكانوا يحجون لمناة، وكانت مناة حذو الصفا فكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله «إن الصفا والمروة من شعائر الله» الآية

أما رواية البخاري فجاء فيها أن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية في ناس من الأنصار كانوا إذا أهلوا لمناة في الجاهلية ، لم يحل لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، فلما قدموا على النبي ﷺ في الحج ، ذكروا ذلك له ، فأنزل الله هذه الآية .

أما أنس بن مالك فيقول : كنا نكره أن نطوف بين الصفا والمروة لأنها كانا من مشاعر قريش في الجاهلية فتركناه في الإسلام فأنزل الله هذه الآية .

أما عمرو بن الحسين فيقول : سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال :

انطلق إلى ابن عباس فسله ، فإنه أعلم من بقي ، بما أنزل على محمد ﷺ قال :
فأتيته ، فسأته فقال : كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له (أساف)
وعلى المروة صنم على صورة امرأة يقال لها (نائلة) فزعم أهل الكتاب أنهما زنيا في
الكعبة ، فمسخهما الله حجرتين ، ووضعهما على الصفا والمروة ، ليعتبر بهما ، فلما
جاء الإسلام ، وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف لأجل الصنمين ، فأنزل
الله الآية : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا
جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكراً عليم ﴾ .

ومن هنا نعلم أن جميع الروايات، تحدث في علة إحجام المسلمين قبل
نزول الآية الكريمة عن الطواف بين الصفا والمروة، تحرزاً من التشبه بالمشركين في
انحراف عقيدتهم، بدليل رد عائشة رضي الله عنها على عروة قوله لها: قلت:
أرأيت قول الله : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا
جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ فما أرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما فقالت عائشة :
بئسما قلت يا ابن أخي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه ، كانت فلا جناح
عليه الا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت ، لأن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون
لمناة الطاغية ، وكان من أهل يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة : فسألوا
عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نحتاج أن نطوف بين
الصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله
فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ ثم قالت : ثم ، قد سنّ
رسول ﷺ الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بينهما .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله
عنه - أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت ، عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم
خرج من باب الصفا وهو يقول : إن الصفا والمروة من شعائر الله ثم قال : ابدؤوا
بما بدأ الله به - أي ابدؤوا السعي بالصفا وروى أحمد عن حبيبة ، أنها قالت :
رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه ، ووراءه وهو
يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي ، يدور به إزاره وهو يقول : كتب علينا
السعي فاسعوا .

ومعنى أن الصفا والمروة من شعائر الله أي أن السعي بينهما مما شرع الله تعالى لإبراهيم عليه السلام من مناسك الحج ، فمن سعى بينهما فإنه يؤدي شعيرة من شعائر الحج ، ما دام قلبه معلقاً بالله خلال سعيه لا بما تعلق به قلوب أهل الجاهلية من أساف ونائلة وغيرهما مما كانوا يعبدون من دون الله . لقد قطع الإسلام ما بين أوهام الجاهليين وأفكار المسلمين مع إقراره كثيراً مما كانوا يؤدون ما دام لا يمت إلى الوثنية بصلة، ما دامت العقيدة قد طبعت على التوحيد ، إن الدعوة الإسلامية قد هزت أرواح المسلمين، أحدثت بنفوسهم ثورة على كل بالٍ من العقائد الواهية حتى إنهم ليتخرجون من أداء شعيرة كانوا يقومون بها في الحج خشية أن يتردوا فيما تردى فيه الأولون منهم في بؤرة الشرك، إنهم بهذه الدعوة الجديدة قد خلقوا من جديد، فلم يعد لماضيهم في نفوسهم سوى ذكريات أليمة لم تعد لها رواسب أو آثار ، فهم ينظرون إلى ما كانوا عليه بعين الحذر والحرج والتوجس لأنهم يرونه دنساً ورجساً يأبون أن يرتكسوا فيه من جديد، ولكن الإسلام أقر من هذه الشعائر ما لا بأس فيه ولكنه يحصنه الإيمان والتوحيد بعد أن قطع ما بينه وبين جاهليتهم من أسباب، فالسعي بين الصفا والمروة شعيرة قديمة من شعائر الحج أصلها كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مأخوذ من سعي هاجر ، وتردادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها ، لما نفذ ماؤها وزادها، حين تركها إبراهيم عليه السلام هناك وليس عندها أحد من الناس، فلما خافت على ولدها هناك ونفذ ما عندها قامت تطلب الغوث من الله عز وجل بالسعي ، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة في خوف ووجل حتى كشف الله كربتها ، وأنبع لها ماء زمزم . إنها لم تقعد ناظرة إلى ولدها الذي يهدده خطر العطش داعية أو باكية ولكنها سعت واجتهدت وبحثت ولم تيأس ، سبعة أشواط بين جبلين عساها تجد الماء، وحين وجدته قد نبع بفضل الله ، حمدت الله .

إن العمرة كالحج في شعائره ، فيما عدا الوقوف بعرفة فالطواف فيها كالطواف في الحج . فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما . ونختتم الآية الكريمة ببيان أن الطواف خير، حتى لا يكون بنفوس

المسلمين أي حرج مما كان في الجاهلية. لقد طمأنت الآية القلوب بقوله تعالى ﴿فمن تطوع﴾ خيراً فإن الله شاكر عليم» اعتبرته خيراً ووعد الله بالجزاء عليه بقوله سبحانه ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ فشكر الله لعمل عباده يتبعه فضلاً ثواب الله ، كما أنه يوحي بالرضى الذي ارتفع فسمّا إلى درجة الشكر ، وأي شكر ؟ إنه شكر الرب العظيم لعباده ، ثم إنه تعالى عليم يعلم ما في القلوب ، يعلم أنه طواف خالص لله لا لغيره ، لا يشوبه رياء ، ولا يشرك فيه غير الله ، وإذا كان الرب الكريم يشكر عبده ، فما دور العبد نحو ربه ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الله عز وجل في سورة البقرة :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾

[البقرة : ١٥٩]

القصة :

يروى ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : سأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد، نفرأ من أحبار اليهود، عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إياه ، وأبوا أن يخبروهم فأنزل الله تعالى فيهم :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾

أما أبو العالية فيقول: إن أهل الكتاب من اليهود، كتّموا صفة النبي ﷺ ثم أخبر الله أنهم يلعنهم كل شيء على صنعهم هذا، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء ، فهؤلاء المصللون يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون .

ومن هنا نعلم أن اليهود انساقوا مع أهوائهم، فتجاهلوا ما جاء به نبيهم موسى في التوراة طالما أنه يتعارض مع مصالحهم، لقد دأبوا على كتمان رسالة محمد ﷺ وأنكروا صدقها معرضين بذلك عما جاء بالتوراة من البشري بمبعثه، كما تجاهلها من بعدهم النصارى، إنهم بذلك يحاولون إخفاء أمر أراد الله له أن يظهر ويشيع، بل أن يؤمنوا به، لأنه أنزله بكتابه، ولكنهم خانوا الأمانة حين أنكروه، وتحذوا أمر الله حين كتموه .

إنهم وأمثالهم في كل زمان ممن يكتمون الحق، ويزيفون الحقيقة، أو حتى يسكتون عن إعلان كلمة الحق وهم يعرفونه، ويطمسون نوره وهم يرونه، إن كل هؤلاء بمواقفهم المخزية ملعونون، ملعونون من خلق الله، ملعونون من الله، **أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾** أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

إن اليهود حين ضنوا بما علموه على سائليهم من المسلمين، أقل ما يوصفون به أنهم كتموا العلم وحبسوا ما أنزل الله عن عباد الله، وكتمان العلم كتمان كلام الله جرم، أي جرم يستحق عليه الكاتم لعنة الله . فقد قال رسولنا الأعظم، صلوات الله وسلامه عليه : «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» وفي الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : (لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً) ﴿١﴾ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون ﴿٢﴾ ويقول البراء بن عازب - رضي الله عنه - : كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فقال : (إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه، تسمعها كل دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته)، فذلك قول الله ﴿٣﴾ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴿٤﴾ يعني دواب الأرض، وقيل : تلعنهم الملائكة كما صرحت بذلك الآية ﴿٥﴾ أولئك يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعين ﴿٦﴾

وتستثني الآية التالية من هؤلاء الملعونين قوماً تابوا إلى ربهم، فامتثلوا له، أصلحوا العمل كما أصلحوا النية، نشروا العلم الذي أفاضه الله عليهم،

فتاب عليهم، وعفا عما سلف منهم ، لأنه تواب رحيم بعباده ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو المروج لبدعة ملعون لإامن عرف الحق فتاب، فإن الله سبحانه بكرمه يمد إليه بالمغفرة يديه، يفتح عليه نافذة التوبة ، ما دام قد أفلح عما وقع فيه وأصلح من أمره، ثم أصلح من أمر الناس بدعوتهم إلى الحق، وبين لهم أحكام الله ، إن الإسلام دين الأمل ، إذ لا يأس ولا قنوط من رحمة الله مع الإيمان بالله ، فمن يرجع إلى ربه يعد إلى الحمى الآمن إلى الظل الوارف من الرحمة ، وإذا كان القرآن الكريم قد لعن من يكتم علماً ووعد التائب بقبول توبته فإنه يؤكد بأن ذلك من رحمة الله بعباده ﴿فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ ، إنه وعد الرحيم الكريم ليظمن التائب، ويركن إلى ثقته بالله ، الذي يرحم قبل أن يعذب، ويعفو قبل أن يؤاخذ ما دام العبد قد عرف الطريق، فترك السبل المعوقة وسار في دربه القويم ، أما إذا تمادى في العصيان وأصر على المضي في طريق الضلال ، فإنه ضائع ضال، هالك لا محالة، حتى إذا جاءه الموت ندم وتحسر قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحاً فيما تركت ، ولكن أنى له ذلك، لقد فاتته القطار، وأفلتت من يده الفرصة، ويسمع الرد عليه آئذ: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ لذا كانت التوبة هي الفرصة المتاحة لكل من أخطأ الطريق أو حاد عن الجادة ، تلافياً، وتصحيحاً، وإنابة .

وكان فضل الله بالمسلمين عظيماً إذ دعاهم في كتابه إلى التوبة إليه ، ولم تكن التوبة باباً مفتوحاً للمذنبين في الأمم السابقة بهذه الصفة ، بل كان المذنب حين يريد أن يتوب يقتل نفسه تكفيراً عن ذنبه ولكن الله أكرم أمة نبي الرحمة بهذه الخاصة .

وقد كان الأحرى باليهود وهم أهل كتاب أن يبقوا على ما بكتابهم لا يأخذون منه ما ينفعهم في دنياهم، ويتركون ما لا يتفق مع مصالحهم ومآربهم الذاتية ، ولكن الله أحل عليهم اللعنة، إذ كتموا ما جاءت به الرسل من الدلالات والهداية النافعة للقلوب ، وكما شن عليهم القرآن الكريم حرب اللعنة ، فإن اللعنة أيضاً تلحق أيضاً بكل من كتم كلمة الحق ، أو منع إيصال

هدى الله إلى خلق الله ، إن لعنة الله في الآخرة تتجسم في نار تلتهم أجسامهم ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، لا يؤجل عذابهم ، ولا يمهلون لحظة ، فهو عذاب متواصل عذاب لا هوادة فيه ، إنه عذاب المهانة والخفوة والطرده ، وما أسوأه من مصير؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق جل وعلا في سورة البقرة .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُكِّ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة : ١٦٤]

القصة : ففيها يقول المفسرون :

لما نزلت آية ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ تعجب المشركون وقالوا : إلهاً واحداً ، لئن كان صادقاً فليأتنا بآية ، فأنزل الله تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ الخ الآية . أما ابن عباس رضي الله عنهما فيقول : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، نتقوى به على عدونا ، فأوحى الله إلى نبيه أني معطيهم ، ولكن إن كفروا بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، فقال رب : دعني وقومي فأدعوهم يوماً بيوم ، فأنزل الله هذه الآية . وفي رواية : كيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم ؟

ومن ثم نعلم أن الإنسان في شتى العصور ، يشدد بطبيعته على المحسوسات ،

فلا يؤمن إلا بإدراكها، والله تبارك وتعالى نبه في كثير من الآيات إلى استعمال العقل في خلق السموات والأرض، تلك في ارتفاعها ولطافتها وأفلاكها، وكواكبها السيارة، في انتظام ورتابة، وهذه في كثافتها ووهادها وجبالها وبحارها، وعمراتها وما فيها من معالم، ثم يدعوننا إلى التدبر في اختلاف الليل والنهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾.

إنها ظاهرة كونية متكررة في انتظام لا تخلف فيه، ألا ترى من آيات قدرة الله أنه: يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، فيزيد من هذا في ذاك وبالعكس، ثم تلك الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، حين سخر البحر ليحمل السفن من جانب إلى جانب.

وإن نظرة إلى هذه المياه السارية في الزروع، الجارية في الأنهار والقنوات ليجعلنا نتساءل ما سرها؟ إنها مما أنزله الله من السماء، وما أنزل من السماء من ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، إنها سر الحياة، ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

ثم لتأمل هذه الرياح المتقلبة التي تحرك السحب على صفحة الماء يزجيها الله، لتوجهها إلى أرض ميتة ليحييها. إنها مشاهد كونية ينظرها الإنسان، فإن كان قلبه واعياً فإنه يرى فيها آيات بينات تهز كيانه وتحرك مشاعره، وتحيي قلبه بالإيمان، الذي تنميه هذه القدرة المعجزة، قدرة الله ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾.

إنها آيات بينات، تنبه الحواس، وتثير المشاعر، وتفتح القلوب قبل العيون على عجائب احتواها كون الله العظيم.

إنها في الحقيقة دعوة صريحة إلى ارتياد هذا الكون بعيون مفتحة وعقول مستنيرة، وقلوب حية ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

إن هذه الآيات التي تنطق بها الحياة، الحياة السارية في كل الكائنات،

تراها في الأرض الميتة عندما ينزل الله عليها الغيث، فتكتسى زهراً وعشباً وزرعاً، تراها في هذه السحب فتأمل وتفكر فيمن ساقها إلى هذه الأرض، وفي تلك الرياح من حركها لتتجه بالخير حيث يشاء، إن السحب لا يحملها إلا هواء مسخر بين السماء والأرض، وهذه الرياح التي تثار ثم تسكن، حيث يكون في إثارتها الخير الملموس، وفي سكونها أيضاً الخير الذي لا تدركه.

وتختتم الآية الكريمة بتحريك العقل، بالتدبر والنظر والتأمل على قدرة الله في مشاهد كونه، فكأن الغافل عنها غير عاقل: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالعاقل هو الذي يتدبر لأن الله خلق العقل ليفكر لا ليتعطل وتحمده جذوته، وغير العاقل هو الذي يغفل عقله، وتلغى وظيفته، فيلقى على تفكيره الغفلة، العاقل هو الذي ينظر إلى مشاهد الكون بحس مرهف، وفكر متجدد ونظرة فاحصة، والعقلاء هم الذين يدركون قدرة الله في خلقه فيزداد إيمانهم، لأنهم فكروا بحس واع، وأدركوا آيات الله بوجدان حي، فكانوا في حياتهم سائرين على نور من إيمانهم، لأن الإيمان يكشف لهم الخفي، ويدركون فيه عظمة الخالق.

فهذه الأعاجيب التي نلاحظ في كل ما خلق الله من صنع الله التقدير إذا تأملها المؤمن اهتز كيانه وهنا يكون الإيمان بالله والتسبيح بحمده.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

والإيمان رؤية جديدة للكون، وإدراك حي لتناسقه وبديع نظامه، فما أعجب هذا الذي يرى ولا يتأمل، وينظر ولا يتعقل، إنه الذي منح عيناً ولكنه لا يبصر بها، وأذناً ولكنه لا يسمع بها وعقلاً ولكنه لا يعي به

إن مثله كالأعمى، الذي لا يدرك ما حوله، وشتان ما بينه وبين المؤمن الذي يرى فيدرك الحقيقة.

وصدق الله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق جل وعلا في سورة البقرة :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

[البقرة : ١٧٠]

القصة :

يروى ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ، ورجبهم فيه ، وحذرهم عذاب الله ونقمته ، فقال رافع بن حرمة ، ومالك بن عوف ، بل نتبع يا محمد ، ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم منا ، وخيراً منا ، وأنزل الله في ذلك قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

ويقول قتادة في الآية التالية لهذه الآية ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ .

إنما هذا مثل ضرب لهم ، في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً ولا حياة لها ، فهم صم عن سماع الحق ، عمي عن رؤية طرائقه ومسالكه ، لا يعقلون شيئاً ولا يفهمون . فهذه الآية توضح بالمثل سابقتها ، ومن هنا نعلم ، أنه سواء كان هؤلاء الذين تعنيهم الآية الكريمة هم المشركين الذين رددوا هذا القول ، وأصروا عليه كلما دعوا إلى الإسلام ، وهجر ما ألفوه في جاهليتهم ، مما لا يقره الإسلام ، ولا الفطرة السليمة ، أم كان هؤلاء اليهود ، الذين كبروا وأنكروا ، وصمموا على التمسك بما أثار عن آبائهم وأحبارهم ، ورفضوا الاستجابة إلى الإسلام ، الذي عرفوا من توراتهم أنه الحق وأن محمداً

هو نبي آخر الزمان إذ بشرتهم بعلاماته وصفاته ، ولكنهم خافوا على سلطانهم
وتسلطهم على أتباعهم وأكلهم بالباطل أموالهم .

سواء كان هؤلاء، أو أولئك ، فالآية الكريمة تنعي عليهم تلقي شيء
يتعلق بأمر العقيدة من غير الله ، منددة بتقليدهم الأعمى للضالين من
سابقهم، وأولى بهم أن يحترموا عقولهم فلا يتبعوا غيرهم ولو كانوا آباءهم أو
أحبارهم بلا تعقل أو إدراك ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ،
فكيف يتبعون غير العاقلين كيف يتبعون في دينهم الضالين، ولكنه التقليد بلا وعي ،
التقليد الأعمى الذي وقعوا فيه بإرادتهم هم، واختاروه مصدراً لعقائدهم، لقد
قلدوا بلا تعقل أو تفكير فكانوا كالسائمة تتبع فحلها دون تدبر أو معرفة
للطريق، فالتقليد في أمر العقيدة أمر خطير، إنه إلغاء للعقل، وتعطيل للفكر،
ثم إنه مظهر على التبعية الضالة ولمن ؟ لأولئك الذين اتخذوا من دون الله أنداداً ،
لقد جرهم تقليدهم إلى إنكار الحق ، فعموا عنه ، لقد ظلموا أنفسهم، ثم إذا
تأملت مصيرهم يوم القيامة ترى أن متبوعيهم قد تبرؤوا منهم ، فقد ألغيت هناك
الرئاسات والزعامات، ولكنهم اكتشفوا أخيراً بعد فوات الأوان أنهم خدعوا
فانخدعوا . خدعوا في قياداتهم، إذ أبعدتهم عن الهدى ، وزينوا لهم أتباعهم،
فكانت اللائمة واقعة على التابعين والمتبوعين سواء ، إذ غفلوا عن حقيقة
كبرى ، هي أن القوة لله جميعاً ، فلا شركاء ، لا رؤساء ، لا أنداد ، إنها حقيقة
الألوهية الواحدة وما عداها كذب وادعاء بدليل أنهم سيعجزون وهم القادة عن
حماية أتباعهم أو درء العذاب عنهم ، إنهم سيتبرؤون منهم ، فيتمنى التابعون أن لو
عادوا ليتبرؤوا هم من متبوعيهم ﴿ وقال الذين اتبعوا للذين أتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ
منهم كما تبرؤوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من
النار ﴾ .

إن إصرار هؤلاء على التمسك بعقيدتهم، إن صح أن لهم عقيدة دون
إعمال فكر أو انطلاق عقل جامدين مقلدين، لاغين عقولهم، سادرين في
ضلالهم يستحقون معه أن يصفهم القرآن الكريم بصفة زارية ، لاثقة بجمودهم
العقلي ، وانقيادهم لتقاليدهم ، إذ صورهم بصورة البهائم الهائمة التي لا تعي ما

يقال لها ، بل إنها إن سمعت فلا تسمع إلا صياح راعيها على أنه مجرد صوت لا تفقه له معنى ، وفي الحقيقة هم أضل منها ، فهي تسمع وتصيح ، ولكنهم صم بكم عمى وإن اشتركوا في عدم التعقل . فهم لا يعقلون .

ولو كانت لهم آذان يسمعون بها ، أو ألسن يتكلمون بها ، أو عيون يرون بها ، أو عقول يعون بها ، ما سدروا في عنادهم ، ولا هتدوا إلى الحق ، وصدق الله ، والذين كذبوا بآياتنا صم ويكم في الظلمات ، من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم .

لقد كتّم اليهود صفة النبي المذكورة في توراتهم ، الكتاب المنزل على نبيهم وهو بين أيديهم ، خوفاً على سيطرتهم وهيمتهم على أتباعهم ، وحرصاً على جلب الأموال من العرب ، والهدايا والتحف من الذين خُدعوا بهم ، فهم كما عرف عنهم عبدة المال أسراء ، فكانت خشيتهم على الزائل أقوى من خشيتهم من الله .

حين كتّموا ما أنزل الله على رسولهم ، ونأوا عن الهدى ، وأعرضوا عن اتباع الحق وكذبوا رسل الله ، وكفروا بما أنزل عليهم ، كل ذلك لقاء نزر يسير من مغريات دنياهم ، فخسروا في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فقد أظهر الله لعباده صدق رسوله ، بما أظهره من آياته ، وما جاء به من دلائل قاطعة على صدقه ، فصدقوا الذين استقامت عقولهم ، فعرفوا طريق الحق ، فاتخذوه لهم منهجاً ، أما الذين كتّموا ما أنزل الله من الكتاب واشتروا به ثمناً قليلاً ، فقد باعوا أنفسهم للشيطان .

وأما في الآخرة فقد كتب عليهم الخزي واللعنة ، وحرّموا من رضوان الله ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق جل وعلا في سورة البقرة :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ، ثُمَّ نَحْنُ
قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

[البقرة : ١٧٤]

القصة :

يروى ابن عباس رضي الله عنهما فيقول: نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا، وكان يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث من غيرهم، خافوا ذهاب ماكلتهم وزوال رئاستهم، فعمدوا إلى صفة محمد ﷺ فغيروها، ثم أخرجوها إليهم وقالوا: هذا ليس النبي الذي يخرج في آخر الزمان، لا يشبه نعت هذا النبي الذي بمكة، فإذا نظرت السفلة إلى النعت المغير وجدوه مخالفا لصفة محمد ﷺ فلا يتبعونه، فأنزل الله فيهم الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

ومن هنا نعلم أن اليهود دأبهم دائماً الإنكار، ودافعهم إليه الحقد والحرص على ابتزاز أموال العامة، فكان حرصهم على عرض الدنيا مبرراً في نظرهم ارتكاب أية جريمة، فأنكروا في سبيل المال كلمة الله، كلمة الحق، أنكروا ما علموه يقيناً من كتابهم، أخفوا ما أمر الله به أن يظهر، إنها مصالحهم الخاصة، التي اغفلوا إزاءها الحق الذي ينبغي أن يعلن ولقاء ماذا؟ لقاء ثمن بخس، هو الاستيلاء على أموال أتباعهم، إنهم بذلك باعوا أنفسهم للشيطان، وبأها من صفقة خاسرة، إذ حرموا رضوان الله فاستحقوا مقتته وعذابه، فباؤوا بالخيبة

والخسران ، وما جمعوه من أموال ، وما أكلوه بالباطل سيحول يوم القيامة إلى نار تلتهم أفئدتهم ، أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ثم إنهم منبوذون في الآخرة كما نبذوا في الدنيا، مطرودون من رحمة الله ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، محرومون من رضاه، ولا يزيكهم ، سيلاقون الجزاء اللائق بهم ولهم عذاب أليم. وكيف يكلم الله من سخط عليهم ، سخط عليهم لأنهم كتموه ما علموه ، تحذوا الحق وسدروا في الباطل، وكيف ينظر اليهم ، أو يزيكهم، وهم أعداؤه ، أعداء رسله ، أعداء ملائكته أعداء النور ، فهم لا يستحقون هذه المكانة ، لأن من نظر الله اليه يوم القيامة لا يعذب أبداً .

إن القرآن الكريم يندد بتصرفاتهم، ويهددهم في كثير من آياته ، إذ كتموا الحق واشتروا به ثمناً قليلاً، فلا تكافؤ ، ولا تساوي، ولم ؟ لنفعمهم الدنيوي الزائل الذي يحرصون عليه والذي يدفعهم دائماً إلى ارتكاب جرائمهم في حق دينهم، وهل هناك جريمة أشنع من جريمة الإنكار والجحود، والتزييف والتمويه والتضليل .

إنهم بما يحرصون عليه من جمع أموال دون حق ، وأكلها بالباطل، إنما يأكلون في بطونهم ناراً ، وما أبخس الثمن ، إنه ثمن كتمان ما أمر الله به أن يظهر، إنه نار تتأجج في أجوافهم، فكأنهم يأكلونها ، جزاء ما كتموا آيات الله . إن الله سبحانه وتعالى يمهلمهم إلى يوم القيامة، ثم هناك ، يهمل شأنهم، ليظلوا في مهانة ومذلة وازدراء ، مهانة البعد عن رحمة الله ، ومذلة العذاب الذي يتلطف إليهم وازدراء من خلق الله في الجمع الأعظم .

إنه الإهمال الواضح من قول الله تبارك وتعالى. ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم إنه تجسيم للإهمال في صورة قريبة من الحسّ البشري ، إذ لا كلام ، ولا اهتمام ، ولا تطهير ولا تزكية وبالتالي : لا غفران ، وما أقساه من عذاب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ ! .

ذلك ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، وما أخسرها صفقة ، يدفعون فيها الهدى ليشتروا الضلالة ، يبيعون المغفرة بعذاب أليم !

وما أفجعها نهاية ! لقد أتاحت لهم المغفرة، ففضلوا عليها العذاب، فما أصبرهم على النار ! لقد اختاروها بطوعهم، وساروا في الطريق المؤدية لها ، فكانوا بذلك مستحقين لتهكم القرآن بهم ﴿فما أصبرهم على النار﴾.

حقاً إن النار جزاء مكافئ لشناعة جرمهم ، لقد ارتكبوا جريمة تضاف إلى قائمة جرائمهم، جريمة كتمان ما أنزل الله في الكتاب المنزل على موسى ، لينشر على الناس ، لا أن يحجب عنهم ، ليكون شريعة ومنهاجاً لا أن يعطل ، يؤمن ببعضه ويكفر ببعضه ، إنه الحق الذي جاء من عند الله للعمل بموجبه .

ذلك أن الله نزل الكتاب بالحق فمن فاء إليه عاد إلى هداة، وسار على درب الحق ، وانسجم مع فطرة الكون، وناموسها الأصيل، ولكنهم اختلفوا، خالفوه ثم اختلفوا فيما بينهم أيعلمون ما جاء به أم يخفونه ؟، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد، إن كتب الله كلها تدعو إلى التوحيد، إلى الحق ، إلى النور.

أنزل الله قرآنه على محمد ﷺ الذي بشرت به التوراة والإنجيل ، لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، لكنهم بيغيهم اتخذوا آيات الله هزوا ، فكتابهم بأيديهم يدعو إلى إظهار ما فيه من بينات وهم يخفونها ، فكأنهم يكذبونه ويخالفونه ويكتمونه إنهم بذلك في شقاق، شقاق على الحق، شقاق مع النظرة السليمة ، شقاق مع عقولهم، بل شقاق بينهم وبين أنفسهم، لأنهم أماتوا ضمائرهم، ووأدوا الحق بأيديهم، فهم في صراع دائم مع أنفسهم، وفي عراك مستمر مع ضمائرهم إن كانت لهم ضمائر، ثم هم في شقاق مع العالم كله ، إذ بان خداعهم في معاملاتهم فظهر خداعهم وكذبهم، فكان جزاؤهم أن نبذوا وطرذوا وشردوا ، ولعنوا في الدنيا والآخرة لقد كانوا كذلك ، وما زالوا، معاول هدم ، وعوامل ازعاج ، وأبواق تضليل ومصانع إشاعات ، وهواة جمود وإنكار .

ولكن الحق مضيء ، ولن يستطيعوا يوماً أن يطفئوا نوره ، لأنه نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة:

* لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ
عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

[البقرة : ١٧٧]

القصة :

يروى قتادة رضي الله عنه بقوله : أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن البر ،
فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال : فدعا الرجل ، وتلاها عليه وكان الرجل قبل
الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم مات على ذلك
يرجى له ، ويطمع له في خير .

ورواية عنه يقول فيها : كانت اليهود تصلي قبل المغرب ، والنصارى تصلي
قبل الشرق ، واعتبروا ذلك برا ، قال : فنزلت الآية ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب
والنبيين﴾ الخ الآية ، كما روي أن رجلاً جاء إلى أبي ذر رضي الله عنه فقال له : ما
الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق
والمغرب﴾ حتى فرغ منها ، فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتني عنه فقرأ عليه هذه الآية، فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده: المؤمن إذا عمل حسنة سرته، ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أضرتة وخاف عقابها.

وأيا كان السبب، فإنه من المقطوع به أن الله عز وجل لما أمر المؤمنين بالتوجه إلى بيت المقدس في صلاتهم، ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب، وبعض المسلمين فأنزل الله الآية مبينة حكمة الله في هذا التحويل، إن حكمة الله في أمره أسمى من أن نبحث عن سرها ولكن العبرة بطاعته تبارك وتعالى، وامثال أوامره، والتوجه إليه في عبادته، حيثما يأمر وإلى أي اتجاه يشاء، فاتباع ما شرع هو البر والتقوى، وهذا الامتثال والتسليم من علامات الإيمان الكامل، فالبر ليس في التزام التوجه إلى الشرق أو إلى الغرب كما التزم النصراني واليهودي، ولكن البر الحق في الإيمان، الإيمان الذي يصاحبه امتثال وطاعة وإخلاص نية، هذه كلها مظاهر الإيمان، وعلامات عليه، فالتقوى الملازمة للإيمان، هي الهدف من العبادات، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم﴾.

ويعرف مجاهد البر بقوله: البر ما ثبت في القلب من طاعة الله عز وجل، كما يعرفه الضحاك بقوله: البر والتقوى أن تؤدي الفرائض على وجهها.

وفي معنى تكملة الآية: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوي القربى، اليتامى والمساكين، وابن السبيل، والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

يقول مجاهد: هذه أنواع البر كلها، وقد جمعها الآية الشريفة فلم تبق منها شيئاً. ذلكم، لأن من دخل في عرى الإسلام، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وأنه لا إله إلا هو وحده، ثم صدق بوجود الملائكة، واعتقله أنهم عباد الله جبلوا على الطاعة، لكل منهم عمل يؤديه، منهم الركع والسجّد، ومنهم

السفرة بين الله ورسله ، ومنهم الحفظة والخزنة ، والموكلون بالتعذيب أو الاستغفار، وغيرهم وغيرهم مما لا يحصيه إلا خالقهم، وآمن كذلك بكتب الله المنزل، التي ختمت بأشرفها وهو القرآن الكريم المشتمل على كل سعادة للبشر في الدنيا والآخرة ، وكما آمن بكتب الله فإنه آمن أيضاً برسول الله الكرام من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ترجم إيمانه إلى عمل إيجابي صالح، فأنفق من ماله ، مال الله على عباد الله، وآتى المال على حبه ، بذله وهو له محب ، وفي تمنيته راغب، وعليه حريص، إنه ينال بذلك أجر أفضل الصدقة، وهي ما يعبر عنها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بقوله :

(أفضل الصدقة أن تتصدق، وأنت صحيح شحيح ، تأمل العيش، وتحشى الفقر) ثم كان متعاطفاً متجاوباً مع جماعته المسلمة فمدّ يد العون إلى محتاجهم من ذوي قرباه، وهم أولى بالصدقة من غيرهم، ثم اليتامى، وهم الذين فقدوا حنان الأب كما فقدوا ما يواجهون به تبعات الحياة ، ثم المساكين وأبناء السبيل، مؤثراً إياهم بما آتاه الله من خير ليكون من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

إنه بذلك بارّ مستحق لفضل الله : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم وصدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حين يقول: (في المال حق سوى الزكاة) ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ . . الآية، ولا شك أن بذل المال دليل على الثقة في الله، والثقة في جزائه بتنميته لهم وتركيتهم، ثم بالأجر عليه والآية الكريمة حينما رتبت مستحقي الصدقة مبتدئة بذوي القربى وهم أقارب المتصدق كانت متمشية مع طبيعة الإنسان، إذ أن الإنسان يميل بطبعه إلى معاونة أقاربه أول ما يفكر في العون ، فهم أولى من غيرهم ؛ لقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذوي الرحم ثنتان ، صدقة وصلة).

ثم كانت الرحمة باليتيم واضحة في الدعوة إلى رعايته ومعاونته بالمال

والجهد والتوجيه، لأن النفس المؤمنة تحوم دائماً حول هذا الضعيف الذي فقد أعز ما يتمناه مثله وهو راعيه .

ثم كانت الإنسانية، إنسانية الإسلام جلية في الدعوة إلى مساعدة المسكين، وهم إخوان لنا، أفراد في مجتمعنا، ولكن الله قتر عليهم في الرزق، فلا يجدون ما يبلغهم من مؤنة ونفقة، ليعطيهم المتصدق ما يسدون به حاجتهم، والمسكين لا يسأل الناس إلحافاً، وهو أولى من الذي يمد يده سائلاً، لقول النبي ﷺ: (ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له، فيتصدق عليه).

وتشمل مظلة الرحمة كل ذي حاجة، تشمل ابن السبيل وهو المسافر الذي لا يجد ما يوصله إلى بلده، ويدخل ابن عباس رضي الله عنهما في أبناء السبيل الضيوف الذين ينزلون على المسلمين .

ثم لا تحرم الآية السائلين، وهم الذين يتعرضون للطلب فقد قال الحسين ابن علي رضي الله عنهما فيما أخرجه ابو داود: قال رسول الله ﷺ: للسائل حق وإن جاء على فرس.

ثم يأتي في خاتمة المستحقين هؤلاء الأرقاء، فتدعو إلى تحرير رقابهم بمساعدتهم بالمال ليتحرروا .

وبعد أن تتحدد أوجه البر يأتي دور العبادات المفروضة كمظهر سلوكي دال على قوة الإيمان، يصاحبها وفاء بالعهد، وعدم نقض للمواثيق .

ثم أخيراً التحلي بصفة الصبر، الصبر في جميع الأحوال، على الفقر والشدة في السلم، وعلى ملاقة العدو حين البأس .

والصابرين في البأس والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون. إن الآية جمعت تحت راية البر جميع صنوف الخير من عقيدة، وعبادة وسلوك لا يتحلى بها إلا المؤمنون الذين صدقوا في إيمانهم بأقوالهم وأفعالهم ففازوا بأشرف شهادة، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الحق جل وعلا في سورة البقرة :

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ
بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى
[البقرة : ١٧٨].
القصة :

يروىها سعيد بن جبير رضي الله عنه بقوله : إن حين من العرب اقتتلا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، وكان بينهم قتلى وجراحات، حتى قتلوا الصبيان والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض، حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتناول على الآخر في العدد والأموال، فحلفوا لا يرضون حتى يقتل العبد منهم الحر، والمرأة منهم الرجل، فنزل فيهم قوله تعالى :

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ
بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى
[البقرة : ١٧٨]

ويقول ابن كثير في سبب نزول الآية : سبب ذلك أن بني النضير كانت قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم ، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يفادي بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل به، وإن فادوه بمئتي وسق من التمر، ضعف دية القرظي، فأنزل الله في القصاص: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي المنحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، ثم أنزل قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر، والعبد بالعبد والأنتى بالأنتى﴾ .

ويؤيد الشعبي هذه الرواية بقوله : كان بين حيين من أحياء العرب قتال، وكان لأحد الحيين طول على الآخر، فقالوا: نقتل بالعبد منا الحر، وبالمراة الرجل فنزلت الآية. والآية الكريمة تقرر مبدأ إنسانياً هاماً، وتضع دستوراً حربياً

محكماً ، منظماً للمجتمع الإسلامي الذي قام على أشلاء عادات بالية ، ونظم مهلهلة، إذ كان يحكمه قانون الغاب، القوي فيه يدمر الضعيف .

فخلق الإسلام من الفوضى نظاماً ، ومن الهمجية ، خلق رجالاً تحكّمهم شريعة محكمة، ويضمّمهم كيان قوي ، كل فرد فيه يعرف موقعه ، ويؤدي رسالته ويمثّل لقانون ربه وإننا لنجد النداء نافذاً إلى القلوب، نداء الحق جل وعلا أفراد هذا المجتمع الناشئ بصفة الإيمان فيهم ﴿يأياها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ ومن شأن هذا الإيمان الامتثال والطاعة، ناداهم ليوقظ فيهم دواعي التعقل والتدبر لحكمة الله في أمره لهم بالقصاص حيث يقول سبحانه ﴿كتب عليكم القصاص﴾ . وفرضية القصاص تمنع بالضرورة الإقدام على القتل المؤدي إلى المحاكمة، والحكم المماثل للجرم ، فكان في هذا الأمر منع للقتل المؤدي إلى إزهاق روح القاتل بمثل ما أزهاق به روح المقتول، وفي هذا حياة للناس، ولكم في القصاص حياة .

ومعلوم أن هذا الحكم الوارد في الآية الكريمة، الحكم بالقصاص - إنما هو في القتل العمد إذ فيه يقتل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى ، مراعاة للتكافؤ والمماثلة إلا إذا كان العفو صادراً من ولي الدم عن القتل قصاصاً فينزل إلى أخذ الدية متى رضي بذلك أولياء الدم .

وحيثند تطلب بالمعروف والرحمة ، بلا كشف أو انتقام أو تعسف في الطلب كما أرشد القرآن الكريم إلى أداء الدية بإحسان وإجمال ، وإكمال، حتى تصفو النفوس وتندمل الجراح، جراح القلوب ، كما يفهم من قوله تعالى : ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ فتخفيف الحكم من القصاص بالقتل إلى قبول الدية ، منة من الله ، ورحمة بعباده ذلك تخفيف من ربكم ورحمة وكان التهديد الإلهي صارماً بقوله تعالى في نهاية الآية الكريمة ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ .

وفضلاً عن العذاب الذي توعد الله به المعتدي بالقتل بعد أن خفف عنه

الحكم ، أو بالانتقام بعد أن قبل الدية ، فإن قتل من يدفع الدية يصبح لاعتدائه ولا تخفيف عنه بالدية ، لأن الاعتداء بعد التراضي والتصافي نكث للعهد ، وإثارة للشحناء وتجديد للبغضاء ، كما أنه ليس لولي الدم الذي قبل الدية أن يعود إلى الانتقام متعدياً فقد روى أبو شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال : من أصيب بقتل أو فإنه يختار احدي ثلاث إما أن يقتص ، وإما أن يعفو ، وإما أن يأخذ الدية ، فإن أراد الرابعة ، فخذوا على يديه ، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها .

وعن قتادة عن الحسن رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : لا أعاني رجلاً قتل بعد أن أخذ الدية ، أي لا أقبل منه الدية بل أقتله .

ومن خلال هذه التشريعات الحكيمة ، تدرك سعة أفق الإسلام وبصره بحوافز النفوس ومعرفته بنوازعها الشريرة ، فوضع حدوداً وحواجز ، حتى لا يتعدى مسلم حدود الله ، ولا يتجاوزها ولا يتخطى الحواجز ، أو ينحرف عنها ذلكم ، لأن الاعتداء على حياة فرد اعتداء على كل المجتمع بل على كل إنسان حي ، وكف النفس عن العدوان بالقتل كف لها عن الاعتداء على الحياة و قدسية الروح ، وفي هذا كف ، وفي التحذير الزاجر المتكرر في القرآن الكريم ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فيه حياة للمجتمع ، لا لفرد ولا لأسرة ، بل حياة للإنسانية إنها الحياة التي احترمها الإسلام وصانها بالحدود ، وحفظها بالقصاص ، ليكون ردعاً وزجراً ومنعاً ، لأن في القصاص كما أوضحنا حياة ، إذ أن حكمته تسمو عن كونه انتقاماً أو تشفياً ، أو تهدئة نفوس ، بل هو حياة ، لا للمقتول بل للقاتل نفسه حين يدرك أن حياته ستكون ثمناً لجريمة يزعم ارتكابها ، إنه يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على جريمة تكون حياته ثمناً لها ، ثم إن القصاص يقضي على ظاهرة شائعة هي ظاهرة الأخذ بالثأر ، التي طالما صعدت أرواحاً ، ولو اقتص الحاكم من القاتل لما تعرضت جموع كثيرة للإبادة بالثأر ، وإذا كان الإسلام قد غير الطابع الشريرة ، ففوضى على نزعة الإجرام بالقتل ، بدليل أنه لم يقع في عهد رسول الله ﷺ إلا جرائم محدودة اعترف بها مرتكبوها بوحى من ضمائرهم المؤمنة .

فإن شريعة الله في الحدود محكمة، وأثرها في حياة الناس واضح ، لقد
 احدثت ثورة على ما ألفه العرب قبل إسلامهم وقلبت أوضاعاً سيئة كانت سائدة
 فيهم ، إذ يرفع الإسلام بالإنسان المسلم عن أن يكون مجرد آلة حادة تشحذ
 عندما يثار كما كان في جاهليته ، ولم تعد أرواح الناس في نظره مجرد عصفور
 يصاد بل آمن بحرمة النفس بعد أن هذبه الإسلام أدرك أن المسلم كل المسلم
 على المسلم حرام دمه وعرضه وماله .

ومن هنا ساد الأمن ، وعم السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق عز وجل في سورة البقرة :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ
 فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلِعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

[البقرة : ١٨٦]

القصة :

يروى ابن جرير بقوله : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : أقرب ربنا
 فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ، فسكت عنه حتى أنزل الله وإذا سألك عبادي
 عني . . . الآية. أما الحسن بن علي رضي الله عنهما فيقول : سأل أصحاب
 رسول الله ﷺ النبي : أين ربنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني
 قريب﴾

ويروي الإمام علي كرم الله وجهه قوله : قال رسول الله ﷺ : (لا تعجزوا
 عن الدعاء ، فإن الله أنزل علي : ادعوني أستجب لكم ، فقال رجل : يا رسول
 الله ، ربنا يسمع الدعاء ؟ أم كيف ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وإذا سألك عبادي
 عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في عروة فجعلنا لا نضعد جبلاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتاً بالتكبير، فدانما رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم - يعني أشفقوا بها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله ويقول عطاء رضي الله عنه: بلغني لما نزلت الآية، وقال ربكم ادعوني أستجب لكم أنهم قالوا: لا نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ومن هنا نعلم أن الآية الكريمة ناطقة بأن الله بفضله وكرمه لا يجيب دعاء الداعي ولا يشغله عنه شيء لأنه سميع عليم، سميع لنجوى القلوب، عليم بخفقات الأفئدة ووساوس النفوس وهمسات الخواطر.

وهو سبحانه بهذه الدعوة الكريمة يرغب في الدعاء الذي لا يضيع لديه قال الإمام أحمد: أن رجلاً سمع أبا عثمان النهدي، يحدث عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ يقول: (إن الله تعالى ليستحي أن يسط العبد إليه يديه يسأله فيها خيراً، فيردهما خائبين).

كما يروى عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث خصال، إما أن تسجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من سوء مثلها قالوا: إذن تكثر، قال: الله أكثر).

فالمؤمن إذا دعا ربه يطمئن قلبه إلى أن الله الذي يسمع دعاءه سيستجيب له بما يعلمه خيراً له، أما الذي يتعجل الاستجابة فإن الله سبحانه لا يستجيب له، كما لا يستجيب لمن يدعوه، وهو لا يتحرى في طعامه وشرابه وملبسه الحلال.

يروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ما يزال العبد بخير ما لم يستعجل. قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: يقول قد دعوت

ربي فلم يستجب لي) ومن أدب الدعاء أن يكون الداعي مؤمناً بالإجابة، مخلصاً في دعائه، خاشعاً لربه فكل قول أو عمل لا يصدر عن قلب مخلص لا أثر له .

قال رسول الله ﷺ: (القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض فإن سألتهم أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل).

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه ، إن النبي ﷺ قال: (يقول الله تعالى في الحديث القدسي ، أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني).

وفي رواية أبو هريرة إنه سمع الله ﷻ يقول : (قال الله تعالى في الحديث القدسي: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفثاه).

قال: ﴿وهذا كقول الله تعالى: إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكقوله تعالى لموسى وهرون : إنني معكما أسمع وأرى﴾

ويروي جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾. فقال: اللهم أمرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد ، صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وأشهد ان وعدك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها وأنتك تبعث من في القبور.

ولا يخفى أن في ذكر هذه الآية ، آية الدعاء ، بين آيات الصوم، ما يشير إلى أن دعاء الصائم قريب الاستجابة، مصداق ذلك قوله ﷺ: (للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة)، فكان عبد الله بن عمر إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا الله ، وقوله ﷺ في رواية أبي هريرة (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ويفتح له

أبواب السماء ويقول: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين)

فالدعاء الصادر عن قلب مؤمن لا يحجبه عن الله حجاب ، ففي الحديث القدس الذي رواه (الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عتتها عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى : يا ابن آدم واحدة لك ، وواحدة لي ، وواحدة فيما بيني وبينك فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك ، فما عملت من عمل وأما التي بيني وبينك . فمنك الدعاء وعلي الإجابة).

إنه كرم المولى العظيم لعباده ورحمته بهم ، والمتدبر للتعبير القرآني بإضافة العباد الى الله تعالى : ﴿وإذ أسألك عبادي عني فإني قريب، وكيف أن الرد الإلهي جاء عقب السؤال مباشرة لقوله تعالى: فإني قريب﴾.

إذ لم يكن الرد، إني أسمع الدعاء ، بل كان فإني قريب، كأن الإجابة عند الدعاء فورية معجلة ، لأن من شأن القريب سرعة الإستجابة أجيب دعوة الداع إذا دعان .

ثم تأمل هذه الدعوة الربانية الكريمة الموجهة من الله العظيم الكريم الى عباده ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ .

إن الاستجابة للنداء من شأن من تشرفوا بالانتساب الى الله الداعي، تشرفوا بالعبودية له ، ثم تميزوا بالإيمان بالله .

والعبودية والإيمان هما الوسيلة المؤدية الى الرشد والهداية ، الرشد الذي يؤدي إلى الاستجابة، والهداية التي يفيض بها الإيمان .

إنه منهج الله لعباده ، يدعوهم إليه، ليقدم لهم على موائد فضلة خير ما يطمحون إليه من رشد وهداية ورحمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الحق جل وعلا في سورة البقرة :

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ
لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنْكُمْ فَالْعَنَ بَشُرُوهنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى
يَبْيَنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا
الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

[البقرة : ١٨٧]

القصة :

يرويه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: كان المسلمون في شهر رمضان، إذا صلوا العشاء، حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا الطعام والنساء في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية .

وقريب من هذه الرواية، ما رواه البراء عازب رضي الله عنه بقوله : كان المسلمون إذا أفطروا يأكلون ويشربون، ويمسون النساء ، مالم يناموا ، فإذا ناموا ، لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلى مثلها، وأن قيساً الأنصاري كان صائماً ، فأتى أهله عن الإفطار، فانطلقت امرأته تطلب شيئاً وغلبته عيناه فنام، فلما

انتصف النهار غشى عليه من الجهد قال: واتى عمر امرأته وقد نامت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم، وأنتم لباس لهن» .

قال: وفرح المسلمون بذلك .

وفي رواية أخرى، توضح الرواية السابقة وتبين سر إغمائه، يقول فيها، كان أصحاب النبي ﷺ، إذا كان الرجل منهم صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يطعم، لا يأكل ليله ولا يومه حتى يمس، وإن قيساً الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار جاء إلى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت لا: ولكني انطلق فاطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه فنام، وجاءته امرأته بالطعام فلما رآته نائماً، قالت: فأصبح صائماً، فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت الآية، قال: وفرح بها المسلمون فرحاً شديداً رواه البخاري ويقول الزهري: كان الرجل يصوم من العشاء إلى المغرب، فإذا نام لا يصل إلى أهله بعد ذلك ولا يأكل ولا يشرب، حتى جاء عمر إلى امرأته، فقالت: إني قد نمت فوقع بها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله، فتاب عليكم وعفا عنكم وكانت الرخصة، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم، هذا أرجح ما قيل في قصة نزول الجزء الأول من الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها أما الجزء الثاني منها وهو قوله تعالى: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ففيها يقول سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه: نزلت الآية ولم ينزل من الفجر بعد، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود؛ فأنزل الله بعد ذلك من الفجر، فقالوا إنما تعني بذلك الليل والنهار.

ويروي البخاري عنه قوله «لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، فكان رجال يحدثون أنفسهم به، فأنزل الله: علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن والمتدبر

للتعبير القرآني الكريم في قوله تعالى: هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن يدرك شفافية العلاقة الزوجية ورفقتها ، يدرك أنها ليست مجرد علاقة جسدية حيوانية ، وإلا لما كان التعبير القرآني عنها باللباس ، الذي من شأنه الستر والوقاية ، فكل منها ستر لصاحبه ، ووقاية له ، وبذا نجد التعبير القرآني قد أفضى على هذه العلاقة سموً وارتقاءً ، لم يغفل معها الطبيعة البشرية ، إذ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ، فعبّر عن الرغبات المكبوتة التي قد تؤدي إلى الوقوع في خيانة أو محذور بقوله تعالى : كنتم تختانون أنفسكم .

ولما علم الله ضعفهم عن مقاومتها عفا عنهم ، فأباح لهم ما كانوا يعتقدون أنه محذور عليهم ومع هذا كانوا يحدثون أنفسهم بالوقوع فيه ؛ بل إن بعضهم وقع فيه فعلاً ، فكان العفو شاملاً لمغفرة ما كان منهم ، وإباحة ما كان سبباً فيه .

وجاء الأمر القرآني بإباحة الإتيان فيما بين العشاء والفجر دون قيد بنوم بقوله تعالى ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ ولم يمر القرآن على هذه المباشرة دون أن يشير بركة تعبير، إلى أنها يجب أن تكون مرتبطة بالله يبغي بها المسلم مباشرة ما أباحه الله من متع الزوجية ، قاصداً بها هدفاً أسمى من مجرد المتعة بهدف إلى قطف ثمرة المباشرة من الإبقاء على النوع الذي تعمر به الأرض وابتغوا ما كتب الله لكم ، لقد ارتقى القرآن بالعلاقة بين الزوجين عن مستوى إشباع الغريزة ، فنراه حتى في أدق خصائص الإنسان يضع نظماً ، ويرشد إلى أدب ، يسمو به السلوك الإنساني فيما بين الرجل وامرأته حتى أنك ترى الرجل منهم في بساطة البداوى ، وبراعة تفكيره يجتهد حتى لا يقع في محذور ، يقول عدي بن حاتم لما نزلت هذه الآية : وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، ثم جعلت أنظر إليهما ، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال : إن وسادك إذن لعريض ، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل .

ويعني عليه الصلاة والسلام بقوله له : إن وسادك لعريض ، أي إن

كان ليسع الخيطين الأبيض والأسود المرادين من الآية ، فيقتضي إذن أن يكون عرض المشرق والمغرب ، ففيهما ينتشر ضوء الفجر ويقول حنظلة: قال رسول الله ﷺ: لا يمنعكم من، سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ، ولكنه الفجر المستطير في الأفق، والفجر المستطير بالأفق يسبق طلوع الشمس ، إذ كان بلال يبكر بأذانه لينبه النائم، وكان ابن أم مكتوم يؤذن متأخراً للإمسك .

ويجدر بنا أن نذكر بأن الآية ، وقد أباحت المباشرة خلال ليل رمضان، إلا أنها منعت المباشرة مطلقاً خلال فترة الاعتكاف للعبادة في المسجد في العشر الأواخر من شهر رمضان، وإن كانت لا تمنع الدخول الى المنازل لقضاء حاجة، ولضرورة الطعام والشراب، وذلك لأنها فترة تجرد إلى الله ، وانقطاع لعبادته ، ولا تتفق غايتها مع المباشرة، لأن النفس تنسلخ خلالها من كل شهوة ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المسجد، أي في أي وقت من أوقات الإفطار أو الإمساك وتحتتم الآية الكريمة ببيان أن هذه الأوامر والنواهي إنما هي حدود وضعها الله الحكيم ، يجب على المسلم الالتزام بها ، وعدم تجاوزها، تلك حدود الله فلا تقربوها، لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وعلى المسلم ألا يقرب المحظورات المشتهاة خشية أن يغلبه هواه ، وإن في هذا ليبيانا للناس أي بيان ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون، فالتقوى غاية يجب أن تدرك ، ولكن لا يدركها إلا المؤمنون الصادقون .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق جل وعلا في سورة البقرة :

* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آتَىٰ وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ

القصة :

يرويه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :

إن معاذ بن جبل ، وثعلبة قالوا يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقتاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحدة ، فنزل قوله تعالى : يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ، هذا عن الشطر الأول من الآية الكريمة ، أما الشطر الثاني وهو قوله . تعالى .

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ إلى نهاية الآية .

ففي قصته يقول أبو اسحق فيما رواه البخاري : سمعت البراء بن عازب يقول : كانت الانصار إذا حجوا فجاءوا ، لا يدخلون من أبواب بيوتهم ، ولكن من ظهورها ، فجاء رجل من قبل باب ، فكأنه غير بذلك ، فنزلت الآية : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون» .

أما جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنه فيقول : كانت قريش تدعى الحُمس وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام ، وكان سائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه ، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري ، فقالوا : يا رسول الله • إن قطبة بن عامر رجل فاجر وأنه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : رأيته فعلتُ ما فعلتُ ما فعلتُ قال : إني أحس ، قال : فإن ديني دينك فأنزل الله تعالى : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها . . . الآية .

أما المفسرون فيقولون : كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام ، إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة ، لم يدخل حائطاً ولا بيتاً من بابه ، فإن كان

من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته يدخل منه ويخرج، أو يتخذ سلماً ليصعد عليه، وإن كان من أهل البادية خرج من خلف الخيمة، ولا يدخل من بابها، حتى يتحلل من إحرامه. وكانوا يرون ذلك برا، إلا أن يكون من الحمس، وهم قريش وكنانة، وخزاعة وثقيف، وختعم وبنو عامر بن صعصعة، وبنو النضر بن معاوية، سمو حمساً لشدتهم في دينهم قالوا: فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار على إثره من الباب وهو محرم، فأنكروا عليه، فقال رسول الله ﷺ، لم دخلت من الباب وأنت محرم؟ قال: رأيتك دخلت من الباب فدخلت في إثرك. فقال له رسول الله ﷺ «إني أحس قال الرجل: إن كنت أحسبياً فأنا أحس، ديننا واحد، رضيت بهديك ودينك فأنزل الله تعالى: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إلى نهاية الآية.

وبعد: فالآية في جملتها توضح ما كان عليه أهل الجاهلية من عادات اعتبرها من البر ومنها إتيان البيوت من ظهورها، دون أبوابها؛ إذ جعلوها من شعائر حجهم ونزل الوحي الكريم مبيناً أن البر ليس في الأعمال الظاهرية، والتقيّد بطقوس يشق على النفس الالتزام بها، وإنما البر في التقوى، ولكن البر من اتقى.

كما توحى الآية الكريمة في صدرها بأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستطلعون رأيه عليه الصلاة والسلام في كل ما يتعلق بحياتهم الجديدة لمعرفة ما أقره الإسلام مما كانوا يعتقدونه، أو عارضه، حيث كانوا يتصورون أن هذه المشاهد متمشية مع عقيدتهم الإسلامية، فتراهم يسألون عن أشياء كثيرة تتعلق بحياتهم، إذ سألوا عن الأهلة فكان الجواب يذكر بعض خصائصها الفلكية التي تهمهم في حياتهم: قل هي مواقيت للناس والحج: إذ قالوا يا رسول الله: لم خلقت الأهلة، فكان الجواب القرآني متمشياً مع بينة السائلين، مبيناً مدى الانتفاع بها، إنها مواقيت للناس يحددن بطلوعها مواعيد ارتبطوا بها لتسديد دين، أو بداية صوم، أو نهاية عدة، أو بيان مواقيت الحج، ولم تتعرض الآية الكريمة لمنزلة القمر بالنسبة لمجموعته الشمسية ولا للنجوم بالنسبة للشمس، إذ

كان ذلك أمراً لا يعينهم وغير متمشٍ مع تصورهم وبيئتهم، إذ لا حاجة لهم إلى إجابة علمية، إذ كانوا بمشاهداتهم للكواكب ودوام ملاحظتهم يدركون عنها ما يكفيهم، فكان العدول عن الخوض في تفصيلات فلكية أمراً طبيعياً في كتاب جاء لينظم دولة، ويربط قلوب أفرادها بحقيقة إيمانية هامة، هي أن البر كل ما يؤدي إلى التقوى وليس البر مخالفة لطباع الأشياء وإتيان البيوت من غير أبوابها .

وكان أن ربطت الآية الكريمة هذه الحقيقة بأمل كل مؤمن، هو رجاء فلاحه في دنياه وأخراه حين يتقي الله: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

والآية أيضاً عاجلت أوضاعاً اجتماعية، كان المسلمون لا يزالون سائرين على ما ألفوه فيها، ففتحت العقول، بعد أن كانت سادرة في تقاليد بالية، وسابحة في أوهام طبقية عتيدة .

جاء القرآن فوحد الأفكار فلم تعد مشتتة أو مضطربة، بل أضحت عقولاً نيرة وأفكاراً سليمة، تسير مجتمعاً له كيانه ونظمه وقوانينه، كل فرد من أفرادها يعرف موقعه، ويحدد خطه، ويضع له هدفاً، فكان عمق العقيدة، ورسوخ اليقين، يجعل كل مسلم في حذر ويقظة، لا يقدم على عمل أو مجرد تفكير يتعلق بعقيدته إلا سأل عنه ليحرص على إصلاح دينه، ونفعه في حياته إذ لم يعد مقلداً بلا وعي، بل كان بين أفراد مجتمعه إنساناً يتمتع بكرامته، ويشعر بكيانه، لأنهم جميعاً يكونون دولة جديدة، وضع الإسلام نظامها وربط بتعاليمه بين أفرادها، وكل منهم يعرف مكانه في مجتمعه، ودوره الفعال في إسعاده .

ولكن كانت هناك تيارات مضادة للإيمان يراد بها التضييل والتشتيت كانت هناك حملة التشكيك التي يتزعمها اليهود، فقد كان من المحتم على كل مسلم أن يستعد لمقاومتها بالمعرفة والتثبت، ولا سبيل إليها إلا بالرجوع إلى كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلى سنة رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى .

إن المعركة بين الإسلام وأعدائه من اليهود وأمثالهم لا تزال قائمة فهم

يعدون الدين عن العلم، ليوهموا العامة أن الدين يقوِّع أهله في طقوس لا حياة فيها، وبالتالي لا يتمش مع دوافع الحياة المتطورة .

ولكن القرآن الكريم الزاخر بكل ما يطمح إليه الإنسان المتطور من معارف كفيل بأن ينظم حياته ، ويضع نظام معيشته ، كما ينظم عقله وفكره .

والقرآن جاء سلاحاً في معركة بين المسلمين وخصومهم، وبخاصة اليهود، وهم كما كشفهم العالم معاول هدم، هدم الحضارة ، فكان المسلمون بالتفافهم حول تعاليم قرآنهم، محصنين ضد أية حملة ، فوصلوا إلى شاطئ الأمان ، الأمان من أشواك الطريق وعثراته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق عز وجل في سورة البقرة :

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

[البقرة : ١٩٠]

الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

القصة :

يروى ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :

نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صد عن البيت هو وأصحابه، نحر الهدى بالحديبية ، ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه ، ثم يأتي القابل ، على أن تخلو له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت، ويفعل ما يشاء وصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك ، فلما كان العام المقبل ، تجهز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمره القضاء ، وخافوا ألا تفي قريش بذلك وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ، ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم في الشهر

الحرام ، في الحرم فأنزل الله تعالى ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ وفي رواية قتادة : قال، أهل نبي الله ﷺ وأصحابه ، معتمرين في ذي القعدة، فأقام بها ثلاث ليال ، وكان المشركون قد فخرُوا عليه حين رده ، فأقصه الله منهم فأدخله مكة في ذلك الشهر، الذي كانوا رده فيه، فأنزل الله قوله تعالى «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص».

ومما يجدر ذكره أن بعض المفسرين قالوا : إن هذه الآيات من أول ما نزل من القرآن، وإن نزلت قبلها قوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير﴾ ويومها أحس المسلمون أن هذا الإذن، ما هو إلا مقدمة لفرض القتال عليهم، لقد أدركوا آتئذ لم أذن الله لهم ، لقد أذن لهم لأنهم ظلموا، فأباح لهم الانتصاف من هذا الظلم بعد أن كفوا عن دفعه، وهم بمكة، دفعاً للفتنة والأذى .

وكان الإذن معللاً، مبشراً بالنصر، مبيناً للحكمة فيه، مؤيداً بوعد إلهي بالنصر مبينا سر استحقاق عباده للتمكن في الأرض، فكانت هذه الآية الجامعة: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، والله عاقبة الأمور﴾.

أما تأخير الإذن بالقتال، فلأن المسلمين كانوا بمكة قلة محصورين، وكانوا مكفوفين عن دفع المشركين بالقتال آتئذ : وقيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة لسر يعلمه الله ، ظاهره أن يهيئهم الله للقتال في الوقت المناسب وكان من حكمة الله أن كفهم أولاً عن القتال، لتربية نفوس المؤمنين على الطاعة للأمر والامتثال للقيادة ، فلا تحرك إلا بعد إعطائهم إشارة البدء ، أو عند ساعة الصفر كصفر العسكريين ، وهم الذين عرفوا بالحماسة والحمية ،

وسرعة الاندفاع، لقد دربهم دينهم الجديد على ما ألفوه، وأدبهم بأدبه، إذ لم
تبق بعد نداء الإسلام أذنًا تسمع فكان التوازن بين اندفاعهم الموروث،
والتروي الذي تعلموه من دينهم بين حماسهم وتدبرهم، بين الحمية والطاعة،
لقد كانت نفوسهم معملاً ناجحاً أجراها الدين الذي صنع منهم رجالاً أشداء
عند البأس، رحماء فيما بينهم، وكون القتال في سبيل الله. وقاتلوا في سبيل الله
الذين يقاتلونكم - إشعار بأنه قتال لله لا لمجد أو استعلاء، أو لحب التسلط، أو
لرغبة في كسب أو مغنم؛ إنما هو لإعلاء كلمة الله وحماية المسلمين، من أن
يفتنوا في دينهم، أو ينساقوا في تيار الضلال والفساد المحيط بهم، بعيداً عن
حروب الناس الهادفة إلى التوسع في الرقعة، أو استعمار دولة ضعيفة أو
الاستيلاء على خامات طبيعية أو حبا في سيادة، لكنه قتال لتحقيق مبدأ
وتحديد غاية لإعلاء كلمة الله، ثم تبدو العدالة السماوية، التي ربي الإسلام
المسلمين عليها واضحة في وضع قيود للقتال حتى لا يكون فيه اعتداء، ولا
يصاحبه تجاوز للحدود، ولا تعرض لغير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ
والعباد في كنائسهم وصوامعهم، وكان قانونها ولا تعتدوا إن الله لا يحب
المعتدين.

فما أروع هذا النهي، النهي عن العدوان، ولو في حالة الحرب، إنه نهى
مؤيد بتقرير مؤكد من شأنه أن يجعل المقاتل حذراً من الوقوع في المخالفة إن الله
لا يحب المعتدين.

إنه أدب القرآن، حتى في الحروب، يعلمه المؤمنين به، المتمسكين
بتعاليمه، حتى لا ينحرفوا في تيار ما ألفه العرب في جاهليتهم من فظاعات
الانتقام بالتمثيل، وما يستسيغه محاربوا الأمم التي تدعي الحضارة الآن من
ارتكاب شناعات منافية للإنسانية، والتي تهددها بالفناء والدمار، إنه الفرق بين
الإنسانية والوحشية، والمدنية الحقّة والهمجية، فقد روى ابن عمر قال:
وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن
قتل النساء والصبيان، إنها الرحمة بالضعيف، حتى ولو كان من صفوف الأعداء،
إنها المثالية في احترام الإنسانية، إنسانية المحارب تبدو فيها رواه أبو هريرة عن

(النبي ﷺ أنه قال: إذا قاتل أحدكم فليجنب الوجه).

إنه أدب الحرب يعلمه الرسول الأعظم، والقائد الأكرم لجنوده، وإنه ل يبدو واضحاً فيما رواه أبو ليل بقله: غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأق بأربعة أسرى من العدو فأمر بهم فقتلوا صبياً بالنبال، والقتل صبياً هو القتل على مهل رميةً بالنبال حتى يلقى المقتول مصرعه قال: فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري فقال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر، فوالذي نفسى بيده، لو كانت دجاجة ما صبرتها فبلغ ذلك عبد الرحمن فأعتق أربع رقاب ومن هنا نعلم أن الغاية من القتال ليست لمجرد المغنم، فقد أخرج أبو داود عن الحارث بن مسلم بن الحارث عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فلما بلغنا المغار- أي مكان الإغارة على العدو فاستحثت فرسي فسبقت أصحابي فتلقتني أهل الحي بالرنين فقلت لهم: قولوا لا إله إلا الله تحمروا- أي تصان دماؤكم فقالوا، قال: فلامني أصحابي وقالوا: حرمتنا الغنيمة، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت فدعاني، فحسن لي ما صنعت ثم قال لي: إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر.

هكذا كانت الحرب الإسلامية، وهذه آدابها، وتلك أهدافها، وهذا قانونها ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.

لقد راعى المسلمون الأولون هذه الآداب في حروبهم، إذ كانوا يوقنون في أعماقهم إنهم لا ينجرون بعددهم فهم قلة، ولا بعدتهم، لأن ما بأيدي أعدائهم أكثر، إنما ينجرون بإيمانهم، وطاعتهم، وصبرهم، فتمسكوا بأسباب النصر، فكان دائماً حليفهم، وكانوا أسطورة الدنيا في حروبهم وانتصارهم.

فاسمعوا يا قادة حروب الدمار، ويا أبطال قتال العزل المسلمين، اسمعوا يا تجار الدماء، اسمعوا وتعلموا

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق عز وجل في سورة البقرة :

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

[البقرة : ١٩٥]

القصة :

يروى أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه بقوله :

نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سراً ، إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، فلو أقمنا في أمر أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله يرد علينا ما قلنا : وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فكانت التهلكة في الإقامة على الأموال، والانصراف بها عن الغزو والإنفاق له .

أما الضحاك رضي الله عنه فيقول : كان الأنصار يتصدقون ويعطون ما شاء الله ، فأصابتهم شدة، فأمسكوا، فأنزل الله الآية .

ويروي أبو القاسم بن عبد الله قال : كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد، صاحب رسول الله ﷺ ، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين، قال : فحمل رجل من المسلمين على صف الروم ، حتى دخل فيهم ، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس، وقالوا : سبحان الله، ألقى بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس إنكم تتناولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز

الله دينه وكثر ناصره، قلنا بعضنا لبعض سراً عن رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت، فلو أننا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله تعالى من كتابه، ما يرد علينا ما هممنابه فقال: وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، في الإقامة التي أردنا، فأمرنا بالغزو قال أبو القاسم : فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل إليه .

ومن هنا، كان الشح بالمال في سبيل الله تهلكة للنفس، ومهلكة للجماعة، حين تعجز عن الدفاع عن نفسها ذلك، لأن الجهاد في سبيل الله كما يحتاج إلى الرجال، فإنه يحتاج أيضاً إلى المال، والمقاتل في نظام الجيش الإسلامي الأول، كان يعينه الإنفاق فلا معاشات، ولا مكافآت للمقاتلين من الدولة ولا رتب عسكرية، ولا طبقات، لكنهم جميعاً جنود تحت إمرة أخيرهم، ولو كان أقلهم شأنًا وإننا نعلم أن المقاتل كان مجهز نفسه، ويعد بجهد الذاتي سلاحه، وراحلته وزاده، وإن عجز ففي سماحة القادر ومكنته ما يكفيه .

ولقد قال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكون قد ألقيت بنفسي إلى التهلكة، قال لا، قال الله لرسوله، فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك، وإنما هذه النفقة ولكن التهلكة أن يذنب الرجل ولا يتوب، فيلقي بيده نفسه إلى التهلكة ولا يتوب .

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمسك يدك عن النفقة في سبيل الله، فتلقي بيدك إلى التهلكة .

وعن ابن جبير قال: كان الأنصار يتصدقون، وينفقون من أموالهم فأصابهم سنة فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت الآية: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ وكان زيد بن أسلم يقول في هذه الآية: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة قال: إن رجالاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ لغير منفعة، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً على غيرهم، فأمرهم

الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله فقال: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة والتهلكة هنا أن يهلك الرجل من الجوع أو العطش أو قسوة السير بلا راحلة وإنا لنعلم أن المجاهدين العاجزين عن إعداد أنفسهم للحرب كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يحملهم إلى ميدان الجهاد البعيد الذي لا تبلغه الأقدام فيحاول، فإن لم يجد ما يحملهم عليه فإن الأسى يمزق قلوبهم، كما صورهم القرآن الكريم بقوله تعالى: تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، ألا يجدوا ما ينفقون .

لذا نجد القرآن الكريم قد تكفل بدعوة القادرين إلى الإنفاق في سبيل الله، فسادى القادرين لحماية أنفسهم من التهلكة بالبدل، ليعينوا غير القادرين على الإسهام في صنع النصر أو الفوز بالشهادة، وفي الآية نجد النداء قوياً مجلجلاً يهز النفوس، ويحرك الوجدان ويخوف من العاقبة عندما تتحكم غريزة الشح في النفوس، ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

ثم يأمر كل من بيده فضل من مال بقوله تعالى في ختام الآية: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

ذلكم، لأن منزلة الإحسان أسمى منزلة، والإحسان كما قال رسولنا الأعظم صلوات الله عليه وسلامه حين سئل عنه: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والنفس حين تصل إلى هذه المرتبة، مرتبة الإحسان، فإنها تطبع على الطاعة وتحصن ضد الطغيان؛ إذ لا طغيان مع الإحسان، وذلك لأنها تراقب ربها الذي يراها في جميع أحوالها .

وما أروع الإحسان! إن الإحسان يحبه الله، يجب الإحسان في كل شيء ويأمر به إن الله يأمر بالعدل والإحسان، ويجب المحسنين: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ ولا عجب، فديننا دين سلام وإحسان، دين عزة وقوة ورحمة، هي سمات المؤمنين الذين رباهم الإسلام على خلقه وأدبه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ

[البقرة : ١٩٦]

القصة :

ذات شطرين ، أما الشطر الأول منها فيرويه ابن أبي حاتم عن سفيان بن أمية أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ متضمخاً بالزعفران عليه جبهه فقال : كيف تأمرني يا رسول الله في عمري ؟ فأنزل الله : وأتموا الحج والعمرة لله ، فقال رسول الله ﷺ أين السائل عن العمرة ؟ فقال : ها أنذا ، فقال له : ألقى عنك ثيابك ثم اغتسل ، واستنشق ما استطعت ، ثم ما كنت صانعاً في حجاج فاصنعه .

أما قصة الشطر الثاني منها ، ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ . . إلى نهاية الآية ، فقد رواها البخاري عن كعب بن عجرة أنه سئل عن قوله تعالى ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ . إلى نهاية الآية ، فقد رواها البخاري عن كعب بن عجرة أن سئل عن قوله تعالى (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فقال : حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي ، فقال : ما كنت أرى إلا أنه الجهد بلغ منك هذا ، ثم نزلت الآية فقال : أما تجد شاه ؟ قلت : لا ، قال فصم ثلاثة أيام واطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك ، قال : فنزلت في خاصة وهي لكم عامة بينما يجب كعب سائله . . متى أنزلت هذه الآية بقوله : أتيت رسول الله ﷺ فقال : أدن ، فدنوت مرتين أو ثلاثا ، فقال : أيؤذيك هوامك

قال : نعم ، قال ، فاحلق ، وأمرني بصيام أو صدقة أو نسك ما تيسر .

وابن عباس يؤيد رواية كعب إذ قال : نزلنا الحديبية ، فجاء كعب بن عجرة تنتثر هوام رأسه على جبهته فقال : يا رسول الله : هذا القمل قد أكلني قال : احلق قال : فحلق كعب فنحر بقرة ، وأنزل الله فيه ، ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ . الآية .

وبعد فالآية الكريمة قد تضمنت عدة أحكام للحج والعمرة وأوفت حكم من الإيضاح ففي أولها جاء الأمر بإتمام أعمال الحج ، والعمرة ، متى أهل بها المسلم أو بأحدهما ، متجرباً بإحرامه من زينة دنياه وشهوات نفسه ، ثم توضح أنه إذا أحصر الحاج أو المعتمر بما يمنعه عن إتمام شعائرها فإنه حينئذ ينحر ويتحلل من إحرامه حيث أحصر ولو لم يصل إلى المسجد الحرام ، ولو لم يؤد من مناسك الحج غير الإحرام من الميقات ، كما في الحديبية ، عندماحيل بين النبي ﷺ والمسلمين من الوصول إلى الحرم في العام السادس من الهجرة ، ثم عقد معه مشركو مكة الصلح المعروف .

إذ أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه أصحابه أن ينحروا في الموضع الذي بلغوه ويتحللوا من إحرامهم ، ولكنهم تثبتوا في تنفيذ الأمر ، وشق ذلك على نفوسهم ، وعز عليهم أن يتحللوا قبل أن يبلغ الهدى محله ، حتى نحر رسول الله ﷺ هديه أمامهم ، وأحل من إحرامه ففعلوا وفي رواية أخرى ، قال ﷺ : (رحم الله المحلقين ، رحم الله المحلقين ، قالوا والمقصرين يا رسول الله ، فقال في الثالثة ، والمقصرين) .

وإذن لاحلق حتى يبلغ الهدى محله ، إذا ما أريد الإتمام ، وانعدم الإحصار ، ثم من كان مريضاً ، أو من به أذى في رأسه فعليه فدية ، وله التحلل لضرورته ، أما إذا أتموا ولم يحصروا ، وأتيحت لهم فرصة إتمام الشعائر ، فمن أراد التمتع بالعمرة إلى الحج فلينحر ، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى . والأمر بإتمام العمرة ، لا يعنى بأنها فرض كالحج ، ولكن المقصود بالأمر هو إتمامها لا إنشاؤها متى بدىء بها ، إذ أنها غير واجبة ابتداء ، ولكن إذا أهل

بها المعتمر وجب عليه إتمامها .

وحكمة هذا الاستدراك ، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي - بعد الأمر بالإتمام رحمة من الله ، وتيسير فيه على المسلمين ، فالأمر يحرك مشاعر التقوى في القلوب ويحث على القيام بالطاعات المفروضة ، ومتى كان ذلك ، فلا يمنع منه إلا عدو أو مريض ، وحينئذ لا يحرم الله سبحانه بفضله من أهل بالحج أو العمرة أو بهما معاً من أجرهما ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فهو بحسب نيته يعتبر متمماً وينحر نظير تحلله من إحرامه ، وهذا تيسير يتمش مع روح الإسلام وسماحته .

أما إذا أمن الحاج ولم يحصر ، وتمكن من أداء الشعائر ، فلا نحر إلا على المتمتع بالعمرة إلى الحج ، وتفصيل ذلك تكفل به الفقه الإسلامي إلا أنه يجدر بنا أن نقول : إن القرآن الكريم في آيات الحج قد وضع أحكامه بصورة أوفى مما تعرضت له آياته في بقية الفروض ذلك ، لأنها الشعيرة التي أمر الله نبيه إبراهيم بها ، وذلك لقوله تعالى :

﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك به شيئاً، وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم﴾ .

إنه أمر يشعر بتعظيم الله لهذه الشعيرة ، ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ فالتقوى هي هدف كل عبادة ، تهذب وتربي ، وتحرك في النفس تقواها ، فبالتقوى يتقى كل شر ، وبها ينال كل خير .

إن النداء لا يزال موصولاً إلى الأمة الإسلامية ، يصلهم بسيرة أبيهم إبراهيم الذين انتسبوا إلى ملته ، وتشرفوا بها ، ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ
وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ
الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَآتَقَوْا بِأُولَىٰ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ [البقرة : ١٩٧]

القصة :

يرويه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :

كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون بزاد ، يقولون : نحن المتوكلون ،
فإذا قدموا مكة ، سألوها الناس ، فأنزل الله تعالى ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ .

كما يقول عطاء رضي الله عنه : كان الرجل يخرج فيحمل كله على
غيره ، فأنزل الله الآية ويفصل ابن عمر السبب بقوله : كانوا إذا أحرموا ومعهم
زادهم ، رموا به ، والتمسوا زاداً آخر فأنزل الله الآية ، فنها عن ذلك ، وأمروا
أن يبقوا على زادهم ، ليكفوا وجوههم عن الناس وبعد : فالآية الكريمة تقرر أن
للحج وقتاً معلوماً هو شهر شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة وعلى
من فرض على نفسه الحج في هذه الشهور ، وأوجهه بالإحرام ، أن يلتزم بآدابه ،
التي لا يصح إلا بها ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وإجمالاً فالرفث
هو الجماع ودواعيه ، والفسوق هو إتيان المعاصي صغرت أم كبرت ، والجدال
في الحج هو المشادة التي يؤدي إليها الغضب وإذا أحل الرفث ليلة الصيام فإنه
محدور مطلقاً متى أحرم الحاج ، كما تحرم عليه دواعيه ومقدماته أو حتى التكلم
فيه بحضرة النساء ، كما ذكر ذلك ابن عمر حين سئل عن الرفث فقال : هو

إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء ، إذا ذكروا ذلك بأفواههم .

أما الفسوق فهو عند ابن عباس : المعاصي ، وعند ابن عمر ما يصيبه المحرم من صيد أو غيره والفسوق عند الأكثرين السباب ، لقول الرسول ﷺ : (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر) أما الجدل في الحج فقد قالوا : لا مجادلة في وقت الحج في مناسكه ، فقد بينه الله أتم تبين ووضحه أكمل إيضاح ، أما ابن عباس رضي الله عنه فيقول : الجدل في الحج هو المراء ، فقد كانت قريش ، تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكان العرب من غيرهم يقفون بعرفه ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء ، نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب ويدعي كل فريق منهم أنهم في موقف إبراهيم ، فقطعه الله تعالى بالأمر القرآني ﴿ولا جدال في الحج﴾ .

والرأي : أن الجدل هو المخاصمة ، لقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ولا جدال في الحج﴾ أن تماري صاحبك أو تغضبه ، كما يقول ابن عمر : الجدل في الحج السباب والمنازعة ولا تخرج كل هذه الآراء عن أن المحذور هو الغضب الذي يخرج صاحبه عن صوابه فيتفوه بما لا يليق بجلال المتجرد لله في الحج .

إنها آداب يرتفع بها الحاج على نوازع نفسه ، ودواعي الشرفية ، وذلك لأنه في رحلة خير في رياضة روحية ، هدفها السمو بالنفس عن الدنيا ، وبالتالي كل خير يقدمه الحاج أو يفعله لن يضيع أجره ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، إنه حين يوقن بأن هناك من يحصي عليه عمله ، لا يخفى عليه من أمره شيء ، يحسن حينئذ عمله ، ويجعله كله خيراً ليراه ربه جميلاً في عمله ، مطيعاً لأمره

وتأتي الدعوة إلى التزود لرحلة الحج بزادين ، أيسرهما زاد الجسد ، حتى لا يعرض المسافر للحج نفسه للهلاك أو الإجهاد ، وكان الأمر القرآني وتزودوا رداً على جماعة حجوا بلا زاد وقالوا : نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ مخالفين

بذلك طبيعة الأشياء ، مغفلين ضرورة اتخاذ الوقاية من الهلاك ، أو التعرض للمهانة لسؤال الناس .

وأسماهما: زاد القلوب ، وهو التقوى ، ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ فالتقوى زاد الأرواح ، وغذاء القلوب ، بها تقوى وتشرق ، ولا يدرك قيمتها وأثرها في رقة الشعور ، ودقة المراقبة إلا ذوو العقول المستنيرة ، والبصائر المفتحة ، إنهم خير من ينتفع بهذا الزاد ، والله سبحانه وتعالى حين يأمر بالتزود ، لا يقصره على زاد الدنيا فالإنسان بطبيعته يسعى إليه ، ولكنه يبين أفضل الزاد وأدومه إنه زاد الآخرة ، إنه التقوى المؤدية إلى كل خير .

قال مقاتل - رضي الله عنه : لما نزلت هذه الآية : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ قام رجل من فقراء المسلمين : فقال : يا رسول الله ، ما نجد ما نتزود به فقال رسول الله ﷺ : تزود بما تكف به وجهك عن الناس ، وخير ما زُودتم التقوى . فالتقوى وهي مراقبة الله في السر والعلن أساس كل خير ، وهي سر سعادة الإنسان ، فيها في دنياه يترفع عن ارتكاب الآثام ، عن ظلم الناس ، عن غشهم ، عن خداعهم فيعيش آمناً مطمئن الضمير ، محبوباً ممن حوله ، ناجحاً في حياته ، متصلاً بربه ، في أعماله وأقواله وفي أخراه ، يجدها رصيماً ضحماً له ، وذخيرة مدخرة ، حين تنقطع عن الناس أمواهم ويتخلى عنهم أنصارهم ، ولم يبق لهم إلا أعمالهم .

وما أجمل هذا الذي قاله الشاعر الصوفي في التقوى :

خل الذنوب ، صغيرها وكبيرها فهو التقى

واجعل لك ماش فوق أرض الشوك بحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ
مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

[البقرة : ١٩٨]

القصة :

يرويه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : كان ذو المجاز وعكاظ متجري ناس في الجاهلية فلما جاء الإسلام ، كأنهم كرهوا ذلك في الحج ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي في الحج .

وفي رواية مجاهد جاء قوله : كانوا يتقون البيع والتجارة في الحج يقولون : إنها أيام ذكر الله ، فأنزل الله ، الآية : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ وفي رواية أبي صالح مولى عمر قال : قلت : يا أمير المؤمنين : أكنتم تتجرون في الحج ؟ قال : وهل كانت معاشهم إلا في الحج .

كما نجد أبا أمامة التيمي يقول : سألت ابن عمر ، فقلت : إنا قوم نكرى أي نستأجر للعمل ، وإن قوماً يزعمون أنه لا حج لنا ، قال : ألستم تلبون ؟ ألستم تطوفون ؟ ألستم تسعون بين الصفا والمروة ؟ ألستم ، ألستم قلت : بلى ، قال : إن رجلاً سأل النبي ﷺ عما سألت عنه فلم يرد عليه ، حتى نزلت الآية : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ قال : فدعاه فتلاها عليه ثم قال : (أنتم الحجاج) .

ومن هنا نعلم : أن المسلمين كانوا يتخرجون عن كل ما كان مشاعاً في جاهليتهم إذ لم يعد مستساغاً بعد أن اندمجوا في أدب الإسلام أن يقروه ، فهم لا يقدمون عليه ، إلا بعد أن يقول الإسلام فيه كلمته ، وكان العمل بالتجارة شائعاً في موسم الحج ، وجاء الإسلام ، فأباح في الحج البيع والشراء ، والعمل بشتى صوره ، لتحصيل الرزق ، وكسب العيش ، بل واعتبره فضلاً من الله ، ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ ، فالرزق المحصل عن طريق العمل فضل من الله ومنة ، يسرهما الله عند اتخاذ الأسباب وهذا التعبير القرآني يوحي بأن كسب الإنسان لا حيلة له فيه إلا بقدر ما يتخذه من وسائل وإنما هو في الحقيقة بفضل الله وتوفيقه .

وهذا المعنى يعمق الإيمان في قلوب المؤمنين ، حين يعلمون أن ابتغاء الرزق ضرب من العبادة ، لا تتعارض مع عبادة الله بالحج ، ففي كل منهما اتجاه إلى الله ، والتماس لفضله .

ذلكم لأن الإسلام دين عمل ، فلا عبادة مع الكسل ، إن فضل الله متاح للناس ، كل الناس ، يلتمسه كل من يعمل ويكسب ، بل هو ضرب من ضروب العبادة ، عبادة لا تتناقى مع مشاعر الحج .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ، فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ ، يقول المفسرون إن المشعر الحرام هي المزدلفة كلها ، أو هو الحرم وما حوله ، فعن عمرو بن ميمون قال : سألت عبد الله بن عمر عن المشعر الحرام فسكت ، حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام .

والأمر القرآني بذكر الله عند المشعر الحرام ، يفيد أن الحجاج إذا انصرفوا من عرفات ، فعليهم ذكر الله وحده بالتكبير والتهليل والتحميد عند المشعر الحرام .

وفي تسمية عرفه يقول ابن المسيب : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام ، فحج به حتى إذا أتى عرفه

قال: عرفت ، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك فلذلك سميت عرفه ، يؤيد ذلك ما رواه ابن المبارك عن عبدالله بن أبي سليمان عن عطاء قال: إنما سميت عرفه لأن جبريل كان يري إبراهيم المناسك فيقول: عرفت، فسميت عرفات ويطلق على الجبل الذي بأرض عرفه جبل الرحمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا، فأخر رسول الله ﷺ الدفع من عرفة حتى غربت الشمس .

وفي رواية ابن جريح جاء قوله : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : فإن هذا اليوم الحج الأكبر ، وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس ، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها ، وإنما لاندفع قبل أن تغرب الشمس مخالفاً هدينا هدى أهل الشرك فعند الغروب تكون الإفاضة ، ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ ، والمشعر الحرام أرض طاهرة ، وسميت المزدلفة بالمشعر الحرام لأنها داخل منطقة الحرم .

وفي نهاية الآية الكريمة يرشدنا الله جل وعلا إلى ذكره ، شكراً له على هدايته ، ويذكرنا بما كنا عليه من ضلال في جاهليتنا قبل هداية الإسلام: ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ .

فكان شكر الله على هذا الهدى بعد الضلال ، اعترافاً بفضله ، وشكراً على نعمائه إذ أخرجهم الإسلام من جاهلية عمياء ، إلى السمحة البيضاء ، فساروا على نهج هاد ، وطريق سوى لقد كان المسلمون في أول عهدهم قريبو عهد بجاهلية ، فهم مخضرمون ، أدركوا الجاهلية كما أدركوا الإسلام ، فكان التنبيه بأنهم كانوا في ضلال ، ضلال في التصور ، ضلال في العادات ، ضلال في العقيدة ، ضلال في السلوك ، فهدهم الله إلى الدين القويم ، إلى النهج الذي لا يسلكه إلا المهتدون ، ولا يدرك أثره إلا من كان في ضلال وجهل ، وضلالة واضطراب .

فكان ذكر الله شكرأله على نعمة الإنقاذ ، الإنقاذ من بؤر الفساد في العقيدة والسلوك والهداية إلى الدين الحنيف . دين الأمن والسلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

[البقرة : ٢٠٧]

بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

القصة :

يروىها سعد بن المسيب رضي الله عنه بقوله :
أقبل صهيب بن سنان مهاجراً نحو رسول الله ﷺ فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته ، ونثر ما في كنانته ، وأخذ بسبطه ثم قال : يا معشر قريش ، لقد علمتم أي من أركامكم رجلاً ، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمى ما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ، ما بقي بيدي منه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم فقالوا : أرشدنا إلى بيتك ومالك بمكة ، ونحلى عنك .

وعاهدوه إن دلمهم أن يتركوه ، ففعل ، فلما قدم على النبي ﷺ قال : أبا يحيى ، ربح البيع ، ربح البيع ، وأنزل الله تعالى : ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد﴾ وفي ابن كثير رواية عن ابن عباس تؤيد الرواية الأولى وفيها يقول :

نزلت الآية في صهيب بن سنان الرومي ، ذلك أنه لما أسلم بمكة ، وأراد الهجرة ليلحق بالنبي ﷺ منعه الناس أن يهاجر بماله وإن أحب أن يتجرد منه ، ويهاجر فعل ، فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية ، فتلقاه

عمر بن الخطاب وجماعة فقالوا : ربح البيع فقال، وأنتم ، فلا أخسر الله لكم تجارة ، وما ذاك ؟ فأخبروه بأن الله أنزل فيه هذه الآية ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾.

أما المفسرون فيقولون : أخذ المشركون صهيياً، فعذبوه، فقال لهم صهيب : إني شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني ؟ ففعلوا ذلك وكان قد شرط عليهم راحلة ونفقة ، فخرج إلى المدينة، فتلقاه أبو بكر وعمر ورجال ، فقال له أبو بكر : ربح بيعك أبا يحيى ، فقال صهيب : وبيعك ، فلا بخس، وماذاك ؟ فقال : أنزل الله فيك كذا قرأ عليه هذه الآية .

وقال الحسن رضي الله عنه : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ؟ في أن المسلم يلقي الكافر فيقول له : قل لا إله إلا الله، فإذا قتلها عَصَمَت مالك ودمك ، فأبى أن يقولها : فقال المسلم : والله لأُشْرين نفسي لله ، أي أبيعها، فتقدم فقاتل حتى قتل .

وسمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية فقال : إنا لله ، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ففعل .

وتوفيقاً بين الروايات، لا بأس أن يكون السبب خاصاً، والحكم عاماً .

وبعد : فالصورة هنا تناقض وتقابل الصورة التي رسمتها الآية السابقة، والتي وضحتها الآية الكريمة : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ إنه نموذج عجيب حقاً ، وهذه الآية : ﴿ومن الناس من يشري نفسه﴾ تصور نموذجاً آخر من نماذج الخير في الناس .

والآيتان المتواليتان في القرآن الكريم صورتان واضحتان لنموذجين من نماذج الناس

الأولى : تبرز لنا نموذجاً للشر المجسم ، لكل من خالف باطنه ظاهره ،

كل شرير الطبع منحرف القصد، إنه النفاق والرياء والتصنع والخداع .

والثانية : توضح لنا صورة مشرقة وضيئة لنموذج مغاير، نموذج المؤمن الخير الصادق الباذل نفسه ابتغاء مرضاة الله، إنه الذي يشري نفسه لله أي يبيعها ببيع السماح ، يبيعها كلها، لا يستبقي منها شيئاً بيعاً سمحاً لا مساومة فيه ، فما أرباحها صفقة .

هذه الصورة ، وقوة ظهورها أنها قورنت بصورة شرير مماري في خصومته وعدائه للخير .

والصورتان تنطبقان على كثير من الناس في كل المجتمعات، وجميع البيئات البشرية، ولكن الصورة الشريرة نجدها متكررة في أوضاع مختلفة، وأحوال شتى ، بينما لا نكاد نرى الصورة المشرقة إلا قليلاً ، ﴿فقليل من عبادي الشكور﴾ .

نراها منطبقة على قلة من الناس ممن خلص إيمانهم وصدق، وتطهرت نفسه وزكت وتجرد لربه من شهوات نفسه، ورخصت روحه في سبيل الله ، إنه الذي يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، أو يشتري نفسه بكل أعراض الدنيا ، ليعتقها، ويقدمها خالصة لله ، طاهرة نقية من الشر، فهو يضحى بكل مغريات الحياة ، ليتجرد لله مخلصاً ، طاهراً .

والصورتان المتواليتان في آيتين متواليتين من القرآن الكريم توضح كل منهما الأخرى ، وما أعجب أن يعايش النفاق الإخلاص ، والفساد الإصلاح، ولكن لمن تكون الغلبة ؟ إنها دائماً للخير، والإخلاص، والإصلاح ، فعمر الشر دائماً قصير ، ونهايته أليمة ، وزيفه مكشوف .

والخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما قدمت من عمل فما أجدرنا نحن المسلمين، أن نظهر صفوفنا من كل غاش منحرف، وضال مفسد ومخادع منافق ، ليتطهر مجتمعنا، ويسمو بكل مؤمن مخلص يبيع نفسه لله وحينئذ يكون الكسب مضموناً، والربح موفوراً، كما ربح صهيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ
عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۚ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ
لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾

[البقرة : ٢٠٤]

القصة :

يروىها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : لما أصيبت السرية التي كان فيها
عاصم ومرثد قال رجلان من المنافقين : يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا
هكذا ، لا هم قعدوا في أهلهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم ، فأنزل الله تعالى
الآية .

أما السدي رضي الله عنه فيقول : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي ،
أقبل على النبي ﷺ إلى المدينة ، فأظهر له الإسلام ، أعجب النبي ﷺ بقوله
إذ قال : إنما جئت أريد الإسلام ، والله يعلم إني لصادق ، وذلك قوله : ﴿ ويشهد
الله على ما في قلبه ﴾ ، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين
وحمر ، فأحرق الزرع ، ونحر الحمر فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ومن الناس من
يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا
تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾
ومن هنا نجد أن الآية تبرز لنا نمطاً عجيباً من أنماط الناس ، فقد أظهرت لنا في
إيجاز ووضوح هويتهم التي أخفوها ، وأبرزت خصائصهم النفسية التي غطوها

برداء كثيف زائف من التصنع والنفاق ، إن هؤلاء وأمثالهم ينهجون في حياتهم نهجاً سلوكياً خاصاً، إنهم بيننا يعاشوننا ويشاركوننا مجتمعاتنا، ولكن حقيقتهم مستترة وراء رداء تنكري ، ولباس غير لباسهم ، فهم يبدون غير ما يضمرون .

ولنستمع إلى ابن جرير يروي عن نوف البكالي، وكان ممن يقرأ الكتب، قال: «إني لأجد صفة ناس من هذه الآية في كتاب الله المنزل، فهم يجتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مسوح الرهبان ، وقلوبهم قلوب الذئاب»، قال القرظي : تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون وفيهم يقول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾.

وفي قراءة: ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾، وعليها يكون المعنى : وإذا كان قد ظهر لكم منه الجميل والله يعلم ما في قلبه من قبح كقوله تعالى : ﴿إذا جاءك المنافقون، قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾.

أما قراءة الجمهور : ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾، فعليها يكون المعنى ، يظهر للناس الإسلام، ويخفي ما بقلبه من الكفر والنفاق لقوله تعالى : ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم﴾ وفي معناها أيضاً يقول ابن عباس رضي الله عنهما : إنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسان ، أما هو في الحقيقة فهو ألد الخصام، والألد لغة الأعوج وقوله تعالى : ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾ أي عوجاً، وهكذا نجد حال المنافق في خصومته يكذب ويفتري ويزور ولا يستقيم على الحق لأنه هو ألد الخصام .

ومن عجب أن ظاهر هؤلاء يغري ، وباطنهم سيء ، وحولم يدور الاستفهام كيف يتمكنون من الجمع بين النقيضين ؟ ولا عجب، إذا صادفك يا أخي الكريم في مجتمعك إنسان يجلس إليك ، ويحدثك عن الفضيلة والمثل العليا، والقيم السامية، والأخلاق الطاهرة بل وربما تباكى عليها، إنه ولا شك

يصور نفسه لك تمثالاً حياً من الخير، يسعى على الأرض، ويحاول إقناعك بأنه مثال طيب للإخلاص والعفة يمتدنى، وتراه في ظاهره مترفعاً عن الدنيا، حياته كلها طهر وبراءة، فيروك حتماً حديثه ويشدك إليه منطلقه العذب، ثم هو يدل على صدق حديثه، بإشهاد ربه، على ما في قلبه، تأثيراً عليك، وتوكيداً لتجرده، وإخلاصه، ونقاء سيرته .

ثم تكون المفاجأة المذهلة !! حين تكتشف أنه في الحقيقة شيء آخر، إنه أفعى لينة اللمس إنه حرباء تجيد التلون، إنه كما نعت القرآن الكريم ﴿وهو ألد الخصام﴾، نفسه مشحونة بالبغضاء لا تعرف السماحة إليها طريقاً، ولا يزيكها حب، ولا تمت إلى الخير بصلة، وذلك لأنه أجاد الكذب والخداع والتمويه والتضليل، حتى إذا جاء دوره الإيجابي في موقف يختبر فيه الرجال، ظهر المخبوء، وانكشف المستور وفضحت أعماله أقواله، إنه شر مجسم، وفساد متحرك، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل والله لا يجب الفساد .

إذ لا تخفى عليه وهو العليم بخلقه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يجوز عليه المظهر الزائف، وإن جاز على الناس، لأنهم لا يرون إلا بمنظار الظاهر.

إنه لا يعجبه لأنه يعلم حقيقته وهو بارئه، يعلم سره، ويطلع على خفاياه .

ثم إنه أصيل في الشر طبعت نفسه عليه، عنيد لا يخضع ولا يلين لكلمة الحق والخير، إنه حين ينصح يتعالى ويتبجح ويتمادى في إفساده، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم .

وهل هناك فساد أسوأ من سوء الفعال، إنه يسعى في الأرض لا للتعمير بل للتدمير، فهو شؤم على مجتمعه ويعجبني قول مجاهد فيه : إذا سعى في الأرض إفساداً، منع الله الغيث، فهلك الحرث والنسل .

وليته حين أعرض وأفسد اكتفى، ولكنه يبدي استنكاره لمن ينصحه

متعالياً على أن يقال له : اتق الله ، تذكيراً له بمشيئته ، ليكف عن إفساده ، إنه يستكبر أن يوجهه أحد إلى التقوى ، لأنه اعترز بإثمه ، ولكنها عزة المجرم بجرمه ، يرفع بها هامته متبجحاً ، وهو الذي كان منذ حين يشهد الله على في قلبه إن هذا النموذج من الناس حين صوره القرآن الكريم بهذه الصورة الرائعة المعبرة أبلغ تعبير ، التي تكاد تعلن عن نفسها ، والتي يكاد القارئ لها أو السامع أن يشير بيده إلى شخص ما قائلاً : هذا الذي عناه القرآن الكريم في هذه الآية .

إنه صنف من الناس يستحق التهديد ، وبم يهدد ، إنه يهدد بجهنم وبئس المآل ، وبئس المهاد ، وبهذا الأسلوب القرآني الساخر تضع الآيات الكريمة نهايته ﴿فحسبه جهنم وبئس المهاد﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق عز وجل في سورة البقرة :

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَسِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
 ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
 مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ
 حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

[البقرة : ١٩٩ - ٢٠٢]

القصة :

يرويه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :

كانت العرب تقف بعرفة ، وكانت قريش تقف دون ذلك بالمزدلفة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله أن الله غفور رحيم﴾ .

أما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فتقول : كانت قريش تقف بالمزدلفة ، ويقف الناس بعرفة إلا شيبه بن ربيعة ، فأنزل الله : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ .

وفي هذا يقول ابن كثير : كأن الله تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام ، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات ، كما أن جمهور الناس يصنعون لا يقفون بها ما عدا قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم ، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته ، وقطان بيته .

ويروي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان وفيها يقفون بالمزدلفة ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها حتى يفيض منها فذلك قوله تعالى : ﴿من حيث أفاض الناس﴾ .

أما جبير بن مطعم فيروي عن أبيه قوله : أضللت بعيراً في يوم عرفة ، فخرجت أطلبه بعرفة ، فرأيت رسول الله ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة ، فقلت : هذا من الحمس ، ما له ها هنا ؟ قال سفيان : والأحمس الشديد ، وكانت قريش تسمى الحمس ، فجاءهم الشيطان فاستهواهم ، فقال لهم : إنكم إن عظمتم غير حرمكم ، استخف الناس بحرمكم ، فكانوا لا يخرجون من الحرم ، ويقفون بالمزدلفة فلما جاء الإسلام أنزل الله عز وجل : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ يعني عرفه .

ومن هنا نعلم ، أن القرشيين قد اتخذوا لأنفسهم منزلة مميزة ، وأطلقوا

على قبائلها الخمس ، ومنحوا أنفسهم امتيازات على سائر العرب ، وكان من مظاهرها عدم الوقوف معهم بموقف واحد ، وجاء الإسلام فردهم جميعاً إلى حظيرته ، حظيرة الوحدة والمساواة ، وحدة لا تفرق فيها ، ومساواة لا تعال فيها لأحد على أحد ، إنها الاندماج في مجتمع واحد ، مجتمع راق ألغيت فيه الفوارق الموروثة وثلاشت فيه الطبقة المزمومة وكان شعارهم : كلكم لآدم ، وآدم من تراب .

وتحتم الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ ، فالاستغفار عقب أداء العبادة أمر يجبنا فيه ديننا ، فقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً ، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي فقال : (قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم) .

والآية التالية ، تدعو إلى ذكر الله عقب انتهاء مناسك الحج ، ﴿فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ ، وفي قصة نزولها : يقول ابن عباس رضي الله عنهما : كان أهل الجاهلية يقفون في موسم الحج يقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويتحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير آبائهم فأنزل الله تعالى : ﴿فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ .

فالآية الكريمة تحث على ذكر الله ، لا ذكر الآباء ، في موقف ينبغي ألا يذكر فيه غير الله ، يذكر الله كذكر الصبي أباه ، بل هو أولى منه أنه ذكر أشد وأخلص .

وكان الناس في دعائهم فريقين ، فريق لا هم لهم إلا دنياهم ، وهؤلاء : يقولون كما جاء بالآية ﴿ربنا آتنا في الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق﴾ .

ومحكي عنهم ابن عباس رضي الله عنهما فيقول : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاء

ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم ، ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق﴾ .

أما الفريق الثاني من أدركوا الحقيقة ، ووعوا ما ينفعهم ، فاهتموا بآخرتهم ، كما لم يهتموا دنياهم فإنهم يقولون : ﴿ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار﴾ ، وشتان بين الفريقين في منهجه ، فالفريق الأول شغلته دنياه عن أخراه ، فلم يكن لهم خلاق ، والفريق الثاني طلب من ربه حين دعاه حسنة الدارين ، والله يختار له ما يشاء ، ففضيحه إذن مضمون .

وبعد : فالقرآن الكريم يعلم المسلمين ما يصلح لهم حتى في دعائهم ، ليسلموا لله أمورهم ، ويتركوا له الخيرة ، إنهم لن يجرموا من حسنات الدنيا ولا من حسنات الآخرة ، وهم في ميزان الله أرجح كفة وبالكسب أريح صفقة ، ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب﴾ .

أما هؤلاء الذين نسوا في دعائهم آخرتهم ، وانصبت همهم على دنياهم فقد ضلوا الطريق ، فضلوا العاجلة على الباقية .

والإسلام لا يمنع المسلمين أن يدعوا الله بما يصلح دنياهم ، ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله في أمرها وألا يحصروا أنفسهم في نطاقها ، ولهذا مدح الله من يطلب الحسنة فيهما معاً ، هؤلاء الذين يقولون : ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وكان رد الله عليهم : ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ إذ جمعت دعوتهم كل خير في الدنيا يرتجى ، فالحسنة في الدنيا تتسع لكل ما يتمناه المرء من عافية ، وزوجة صالحة ، ورزق ميسر وعلم نافع ، وعمل صالح ، وكلها من حسنات الدنيا ، أما حسنة الآخرة فأعلى وأسمى ، وأعلاها دخول الجنة في أمن من الفزع الأكبر - قال القاسم أبو عبد الرحمن : «من أعطي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً ، وجسداً صابراً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقى عذاب النار» ، وذكر الله بدعائه يوم عرفة أفضل من أي يوم آخر لقوله تعالى : ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ وهي التي يحددها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : الأيام المعدوات أيام التشريق .

إن ذكر الله في هذه الأيام أولى من ذكر الأجداد والتفاخر بالأباء والأجداد ،
لذا نجد الآية الكريمة تنفي عليهم أنهم كانوا يذكرون آباءهم حيث لا ينبغي أن
يذكروا غير الله في أيام الله ، بل طلبت إليهم أن يكون ذكركم لله أشد وأكثر
من ذكركم حين يذكرون آباءهم وأجدادهم .

إنهم قد تجردوا من الثياب ، فأولى بهم أن يتحرروا من الأنساب ، فذكر الله
هو الذي يرفع قدرهم . وهو دليل قوة الصلة به ، وما أكرمها منزلة ، وما
أعظمها صلة ، إنها صلة العبد بمولاه .

إن الحج موسم تجرد وعبادة ، والتماس لرحمة الله ، ورحمة الله لا ينالها إلا
من تعلق قلبه بالله لا بدنياه ، وذكر الله ، ولذكر الله أكبر .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اَدْخُلُوْا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوْا خُطُوٰتِ
الشَّيْطٰنِ ۗ اِنَّهٗ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ ﴿٢٠٨﴾

[البقرة : ٢٠٨]

القصة :

يروى ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :

نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه وذلك أنهم حين آمنوا
بالنبي ﷺ آمنوا بشرائعه، وشرائع موسى ، فعظموا السبت وكرهوا لحوم الإبل
وألبانها بعد أن أسلموا فأنكر عليهم المسلمون ذلك فقالوا : إنا نقوى على هذا
وهذا وقالوا للنبي ﷺ : إن التوراة كتاب الله ، فدعنا فلنعمل به ، فأنزل الله
تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه

لكم عدو ميين ﴿﴾ .

وقريب من هذه الرواية، رواية عكرمة رضي الله عنه قال: قال عبد الله ابن سلام وثعلبة وابن بامن ، وأسد وأسيد ابنا كعب ، وسعيد بن عمرو، وقيس بن زيد، وكلهم كانوا من يهود قالوا يا رسول الله إن يوم السبت يوم نعظمه، فدعنا، فلنسبت فيه ، وإن التوراة كتاب الله فدعنا، فلنقم بها الليل ، فنزل قوله تعالى : ﴿يأياها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة...﴾ الآية وبعد : فمن روعة الترتيب القرآني أن ترد هذه الآية بعد أن أبرز القرآن الكريم نموذجين متقابلين من نماذج الناس ، متضارين في السلوك ، نموذج من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ونموذج من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله .

نموذج المنافق الفاجر ، ونموذج المؤمن الصادق، ثم تسمع بعد ذلك هذه الآية تنادي الجماعة المؤمنة بأسمى ما يتصفون به وهو الإيمان: ﴿بأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ .

فالمخاطبون بصفة الإيمان أولى بهم ، وقد أثرت عواطفهم ، حين نودوا بصفة غالبية عليهم صفة الإيمان بقوله تعالى: ﴿بأيها الذين آمنوا﴾ أولى بهم أن يسرعوا إلى الاستجابة للنداء والتنفيذ الفوري لما يؤمرون، بعد هذا النداء .

إنها دعوة إلهية لعباده المؤمنين، المميزين بالإيمان عن غيرهم، هم الذين أسلموا لله قلوبهم تسليم طاعة وثقة ورضى ، مؤمنين بأن ربهم لا يدعوهم إلا إلى ما فيه خيرهم ، ولا يرشدهم إلا إلى ما فيه سعادتهم وصلاحهم ورشدهم .

فهم يدعون إلى السلم، وهو الأخذ بجميع تعاليم الإسلام والعمل بأوامره كلها، وترك جميع زواجره، حتى لا يكونوا أتباعاً للشيطان .

يؤيد هذا التفسير ابن عباس رضي الله عنهما السلم بالإسلام أو الطاعة لأوامر الله، والدخول في السلم كافة، تمسك بالإسلام بجميع تعاليمه ، وتعاليم الإسلام كفيلة بتحقيق السلام ، فالمسلم حين يتمسك بعرى دينه، إنه يجد فيه السلام الحق الذي هو من صنع الله السلام ، لا السلام المبني على غش الإنسان للإنسان وخداع الأمم القوية للأمم الضعيفة،

بل إنه السلام المبني على الثقة والطمأنينة، السلام الذي لا يعرف الحيرة ولا التحفظ، ولا الخوف ولا الاضطرابات ولا الاعتداءات ولا النفاق ولا الخداع، وحين ينادي الله المؤمنين عامة بالدخول في السلم فإن في هذا وقاية لبعض النفوس التي كان يراودها بعض الشك أو القلق في بداية الدعوة المحاطة بأعدائها من المشركين، وما أهونهم، ومن اليهود وما أخطرهم، ذلك ليخلصوا لله دينهم، ويتجردوا بإيمانهم من عوامل الاضطراب.

فكانت الدعوة إلى السلام، لعيش المسلم في سلام مع نفسه، مع أسرته، مع جيرانه، مع مجتمعه، مع كل الكائنات، يعيش بإسلامه وإيمانه، وما يدفعان إليه من أمان يطمئن القلب إليه، وتستقر به الأرواح، وتؤمن به الوقاية من كل ما يهدد الإنسان، ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

يدعو المؤمن إلى الدخول في حوزته، والعيش في ظلاله، والإسلام هو حصن السلام، الإسلام بكل ما جاء به من تكاليف لا تحمل المسلم بها عنتا، ولا تتجاهل غرائزه، ولا تعطل طاقاته، إنه الإسلام حين يطلب من المسلم فعل شيء أو ترك غيره، فإنه يأمره وينهاه بسماحة ويسرهما من سماته، وحينئذ لا تزعجه التكاليف، ولا تتعارض مع طبائعه ذلك لأنه دين الفطرة.

إن السلم الذي يدعوننا إليه القرآن إلى الدخول في حظيرته، إنما هو لسلامة النفوس سلامتها من طغيان شرورها، سلامة المجتمع من تفكك أفراده ليظل المجتمع السليم، المطمئن بإيمانه، ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا بإيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ فحين يستجيب المؤمن لدعوة ربه بالدخول في السلم فإنه يشعر بالرضا يملاً فؤاده، والاستقرار يسعد حياته إن هذا السلام اتجه إلى الله، ليلتمس المسلم لديه القوة والثقة وراحة النفس، فلا يزعجه فقر، ولا يؤرقه ظلم ولا بخس، فالكائنات جميعها له صديقة، ومعه متعاطفة.

ولما كان الدخول في السلم دعوة ربانية، فإن المقابل لها دعوة شيطانية، وقد حذرنا الآية الكريمة من دعوة الشيطان بقوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا خطوات

الشیطان إنه لكم عدومبین ﴿فالله تبارك وتعالى حين دعا في صدر الآية الكريمة المؤمنین إلى الدخول في السلم فإنه أيضاً يحذرهم في نهايتها من الانقياد للشیطان ، والسير في طريقه ، ثم يستثير مشاعرهم ليتوجسوا منه الخوف، حين يذكرهم بعداوتهم ، هذه العداوة الموروثة منذ أبيهم آدم للآية ، العداوة البينة الواضحة التي ينبغي ألا ينساها المسلم العاقل المتدبر .

وحيث بان لهم ذلك، فإن الآية التالية لهذه الآية إنذار لهم وتحذير فإن ﴿زللتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾.

إنهما طريقان لا ثالث لهما ، وليس أمام المرء إلا أن يسلك أحدهما، إما أن يسلك طريق الله بالدخول في دينه والعمل بتعاليمه ، وإما أن يسلك طريق الشيطان بما يتربص به للإنسان من مكائد وتضليل ليضعه في المتاهات ، ويحيره في الظلمات وأن له ذلك ، وبين يدي المسلم كتاب الله وسنة رسوله فهنا النور وهناك الظلام فماذا تفضلون ؟ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق عز وجل في سورة البقرة:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ

[البقرة : ٢١٤]

القصة :

يرويهما السدي رضي الله عنه بقوله :

نزلت الآية في غزوة الخندق ، حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر وسوء العيش وأنواع الأذى ، وكان كما قال الله تعالى ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ .

أما عطاء، فيقول: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة ، اشتد الضر عليهم لأنهم خرجوا بلا مال ، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا مرضاة الله ورسوله ، وأظهرت اليهود عداها لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى تطيباً لنفوسهم ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب﴾ .

ومن هنا نعلم : أن الله تعالى يخاطب المؤمنين الذين أبطأ عليهم نصره ، داعياً إياهم أن يتبصروا في حال من كان قبلهم ، من مؤمني الأمم السابقة الذين اختبرهم الله بالبأساء والضراء ، فصبروا وجاهدوا ، حتى انتصروا ، فسياق هذه الآية ، في نسقها مع الآيات السابقة ، المستهدفة دعوة المسلمين إلى الدخول في السلم كافة ، وسؤال بني اسرائيل عن النعم التي آتاهم الله إياها ، ثم هم يبدلونها كفرًا ، ويقابلونها بالعصيان ثم بعد أن ذكر قصة الناس مذ كانوا أمة واحدة ودور الرسل معهم ، مما يوحي بالطمأنينة في قلوب المؤمنين الذين عانوا مشقة الاختلاف ليس فيما بينهم وبين أعدائهم من المشركين واليهود والمنافقين ، بل فيما بينهم وبين أنفسهم ، مما جر عليهم ويلات الحرب ، مبيناً أنها سنة الله في خلقه حين يمحص عباده بين الحين والحين ، بالأزمات والحروب ، والشدائد ليعدهم لدخول الجنة ، بصبرهم وحسن بلائهم .

إذ ثبتوا رغم المحن على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ، ولم تثنهم هزيمة ، ولم ترهبهم قوة ، ولم يهنوا أمام فتنة ، إن شأنهم شأن من سبقهم من الأمم الذين ابتلوا فصبروا ، وامتحنوا ، فنجحوا بامتياز في الامتحان ، وكان تذكير القرآن الكريم للمسلمين عبرة لهم ، وتصحيحاً لأفهامهم ، وتبصيراً لهم بمن قبلهم ، كان ذلك واضحاً في الآية الكريمة ، ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ ، إنها تربية إلهية لعباده المؤمنين ، لينتفعوا بالتجارب السابقة وبأقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه وحيث كان هناك استفهام : ﴿متى نصر الله؟﴾ فإن الجواب الفوري جاء مطمئناً للقلوب ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ نصر الله للمؤمنين المستحقين له ، الثابتين على الحق ، لا يتزعزعون عنه ،

يتقبلون البأساء والضراء بصبر كما يتلقون السراء والرخاء بشكر ، فهم بذلك دائماً متطلعون إلى نصر الله ، إذ لا نصر إلا منه سبحانه إن استفهامهم في الآية الكريمة ليس عن قنوط ، أو انزعاج ، أو يأس ، بل هو تصوير لشدة المحنة التي يجتازونها ، هذه التي تزلزل القلوب ، وهي التي يصورها القرآن الكريم في موضع آخر منه بقوله تعالى ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ .

يقول مقاتل : في معنى ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ . الآية خوفوا من الأعداء ، وامتحنوا امتحاناً عظيماً ، لما جاء في الحديث الشريف عن خباب بن الأرت قال : قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال : (إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه ، فلا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، ولا يصرفه ذلك عن دينه ثم قال : والله ليطمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) فالؤمن لا ينضج إيمانه إلا في بوتقة الصبر : بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ الم - أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

إنهم حين يثبتون أمام الفتنة من إيذاء وشدة في العيش ، وقلة في المال فإنهم يصارعون أنفسهم ، وترفعون حرصهم على إحراز نصر سريع ، إنهم بصبرهم يصقلونها ، حتى يبدو معدنها الأصيل نقياً صافياً ، ويقوم إيمانهم الصادق العملاق في وجه أعدائهم حصناً متيناً فيحار العدو فيهم ، لا يجد إليهم ثغرة ينفذ منها إلى عقيدتهم الراسخة ، ويعجز عن النيل من معنوياتهم ، لأنهم بثباتهم وصبرهم على المكاره منتصرون ، وإلى أهدافهم حتماً واصلون وإن العبرة التي تؤخذ من سير الأولين هي تثبيت للقلوب ، وطمانينته للنفوس ، ودفعة قوية إلى مواصلة الكفاح .

إن الكفاح الذي يصاحبه صبر، يمد النفوس بقوة، ويهب العقيدة عمقاً وصفاء فترتفع أرواحهم على كل قوى الأرض، وتتسامى على شرورها، فلم تعد الهزيمة تزعجهم لأنها من طبيعة الحروب، وإنما لنذكر إن هرقل حينها سأل أبا سفيان عن أمر النبي، حينها أراد أن يسترد من هاجر إليه من المسلمين، إذ قال له : هل قاتلتموهم ؟ قال : نعم ، قال : فكيف كانت الحرب بينكم ، قال : سجالاً ، قال : كذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة .

إن الكفاح يقتضي ترويض نفوس المكافحين ، على تلقي الهزيمة بمثل ما يتلقون به النصر أما إذا كان للقنوط مكان في النفوس ، فلا نصر ، ولا أجر .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق عز وجل في سورة البقرة :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ^ط قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ ^ط
عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

[البقرة: ٢١٥]

القصة :

يروى ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : نزلت في عمرو بن الجموح ، وكان شيخاً كبيراً، ذا مال كثير ، فقال : يا رسول الله بماذا أتصدق ؟ وعلى من أنفق ؟ فنزلت الآية . أما عطاء ، فيقول : نزلت الآية في رجل أتى النبي ﷺ فقال : إن لي ديناراً فقال : (أنفقه على نفسك ، فقال : إن لي دينارين ، قال : أنفقها على أهلك ، فقال : إن لي ثلاثة ، قال : أنفقها على خدمك ، فقال : إن لي أربعة ، قال : أنفقها على والديك ، فقال : إن لي خمسة ، قال : أنفقها على

قربتك ، فقال : إن لي ستة ، قال : أنفقتها في سبيل الله وهو أحسها) وواضح أنها صدقة التطوع ، وقد بينت الآية الكريمة وجوه إنفاقها : ﴿قل ما أنفقتم من خير فلولالدين والأقربين، واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾.

وكما في الحديث الشريف : (أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك). ولا يخفى أن وراء سؤال الصحابي الجليل ابن الجموح ، رسول الله ﷺ معنى يوحى بيقظة الضمير المسلم، ورغبة في معرفة وجوه الخير ، وضروب البر ليتجه إليها .

إن الإسلام علمه ، وسائر المسلمين ألا يقدموا على عمل ، مهما قل شأنه إلا بعد أن يستبينوا حكم الإسلام فيه وإن الأسئلة المتوالية في السورة ، عن الأهلة ، وعن الإنفاق ، عن الشهر الحرام وغيرها كانت دفعا لما كان يثيره اليهود في بداية الدعوة من التشكيك في بعض التصرفات ، فكان السؤال عنها تحصيئاً للعقيدة ضد هذه الحملات المغرضة الهادفة إلى بلبلة الأفكار، ونشر الأراجيف لقد دأبت الأبواق اليهودية على بث سمومها سراً وجهرًا بين المسلمين، لتشككهم ، في عقيدتهم حتى يهتز كيانهم ولكن القرآن الكريم كان لهم بالمرصاد كان رده عليهم فاصلاً، ليحل اليقين في قلوب المسلمين محل الشك الذي بثه اليهود، وليبطل الدس الرخيص الذي أرادوا به الواقعة ، ويحبط الفتن التي يسعون إلى إحياؤها ، فرد مكائدهم إلى نحورهم ، حين كشفهم في كثير من آياته .

وكان السؤال الوارد في الآية الكريمة شاملاً للإنفاق من حيث مواضعه ومصادره ونوعه، لما كان للإنفاق من أهمية في بداية الدعوة ، إذ كانت الجماعة المسلمة في أول عهدها تواجه مصاعب وأزمات وكان التضامن والتكافل بين أفرادها، داعياً إلى الحث على الإنفاق، ثم كانت الاستجابة للدعوة القرآنية، والإقبال على الإنفاق عن رضى نفس ، وسعادة قلب، دليلاً على يقظة الضمائر المؤمنة وكان التعبير القرآني بأن الإنفاق خير ، إيجاء بدوره الفعال في تأمين المجتمع الإسلامي الناشئ ، فهو خير حقاً ، خير للمعطي، كما هو خير للاخذ ، وكما يوحى أيضاً بأن الإنفاق لا يكون إلا من خير ما يقدمه المنفق من

أطيب ما يملك ، ليكون تزكية لنفسه ، وتنمية لماله وبركة فيه ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾. ذلكم لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

وحيث كان الإنفاق من خير ما يملكه المنفق ، فإن الآية الكريمة قد حددت وجوهه ، بترتيب أولوي ، فقدمت العصب ، ثم ذا الرحم ، ثم ذا الرحمة من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل ﴿قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ .

إنه توجيه إلهي حكيم ، توضحه الأحاديث النبوية الشريفة ، فقد روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل يسأله على من يتصدق ؟ قال: ابدأ بنفسك ثم بمن تعول .

إنها تربية تتمشى مع الفطرة الإنسانية ، والميول الفطرية ، تربية توجه إلى تقديم الأهم على المهم ، في يسر لا تعسف فيه ، وسماحة لا جهد فيها ، فكان هذا الترتيب المحكم متمشياً مع منهج الإسلام في توجيه المسلم ، حسب ما ركب فيه من طبائع ، فلا يتعارض مع استعداداته الذاتية يسائر حياته ، ويرشده في يسر لا إرهاق فيه ولا إزعاج .

فالبارئ تبارك وتعالى يعلم أن الإنسان يجب ذاته قبل غيرها فأمر بكفائتها ، ثم إنه يتجه بعواطفه نحو والديه ، ثم نحو أقاربه ، ثم المحتاجين ، فكان الترتيب القرآني في الإنفاق كما ورد بالآية الكريمة واقعياً حكيماً ، إذ بدأ بالوالدين ثم بالأقربين ، لأن الإنسان يبذل من ماله لوالديه أو ذوي رحمه وهو مستريح الضمير ، مطمئن النفس راضياً ، لأنه يعلم بأن في تقبلهم منه العون حفاظاً على كرامتهم أن تهان بالسؤال من الغير ، كما يدرك أن في وصلهم توثيقاً للروابط بينه وبينهم ، وتوكيداً لمشاعر الحب المتبادل ، ثم تتسع دائرة التراحم حتى تشمل كل فرد في المجتمع محتاج ، من صغير ضعيف ، كسير الجناح كاليتيم ، أو مسكين لا يفي دخله المحدود بحاجاته أن يسكت عن سؤال الناس ، فيحسبه الجاهل غنياً من التعفف ، ثم هؤلاء الذين انقطعت بهم الطريق ، ونفذ ما لهم .

إن المنفق حين يعين هؤلاء جميعاً بماله ، مدفوعاً بمشاعر إيمانية وعواطف إنسانية نابغة من ضميره الذي أحياه دينه ، أنه حين يزكي نفسه حين ينفق من طيب ما يملك ، مخلصاً لله في نفقته ، مشعراً بجماعته المسلمة بأن الله حين حرم هؤلاء وأعطاه ، فإنه فرض لهم في ماله نصيباً معلوماً فكان من الذين استجابوا للأمر الإلهي: ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾.

إنه ينفق وينفق ويؤمن بأن الله يعلم نيته ، إن كان إنفاقه مخلصاً أو يشوبه رياء فهو إن كان خالصاً لوجه الله فإن أجره لن يضيع عند الله ، ﴿وماتنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ .

ورسولنا الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يقول: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول) .
كما روى جابر بن عبد الله قال: جاء رجل بمثل بيضة من ذهب ، فقال: يا رسول الله: أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ، ما أملك غيرها ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال: مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم أتاه من خلفه ، فقال له مثل ذلك ، فأخذها رسول الله ﷺ فخذقه بها ، فلو أصابته لأوجعته وقال: (يأتي أحدكم بما يملك ، فيقول هذه صدقة ثم يقعد يتكفف الناس خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) .
إنها التربية الإسلامية ، إنه الإسلام الذي لا يرضى للمسلمين إلا العزة ، والتعفف عن مهانة السؤال ، وذل الحاجة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدُّ عَنِ

سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأَلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ
إِنْ اسْتَطَعُوا

[البقرة : ٢١٧]

القصة :

يروى عروة بن الزبير بقوله :

إن رسول الله ﷺ بعث سرية من المسلمين ، وأمر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي وكانوا جميعاً من المهاجرين ، ليس فيهم أحد من الأنصار ، ومعه كتاب مغلق ، وكلفه ألا يفتحه ، حتى يمضي ليلتين ، فلما فتحه وجد به : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل ببطن نخلة - مكان بين مكة والطائف - ترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم ، ولا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك ، قال : وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى ، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب : قال سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى بطن نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتية منها بخبر ، وقد نهى أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها ، فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، وأنا ماض لأمر رسول الله ﷺ ، فمضى ومعه أصحابه ، لم يتخلف منهم أحد ، فسلك الطريق إلى الحجاز ، حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، فتخلفا عن عبد الله بن جحش لبيحنا عن البعير ، ومضى الباقيون حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمي ، وثلاثة آخرون فقتلت السرية عمرو بن الحضرمي ، وأسرت اثنين ، وفر الرابع ، وغنمت العير ، وكانت تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادي الآخرة ، فإذا هما في اليوم الأول من رجب ، وقد دخلت الأشهر الحرم التي يعظمها العرب ، وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها ، فلما قدمت السرية بالبعير والأسيرين على رسول الله ﷺ قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف البعير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك

شيئاً ، وحينئذ أسقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال ، وقالت اليهود : تفاءلوا بذلك على محمد ، عمرو بن الخضرمي واقد بن عبد الله ، عمرو وعمرت الحرب الخضرمي حضرت الحرب ، واقد ووقدت الحرب .

فأنزل الله الآية . ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل﴾ .

قال الزهري : لما نزلت الآية ، قبض رسول الله ﷺ العير ونادى الأسيرين ، ولما فرج الله عن أهل تلك السرية ما كانوا فيه من غم ، طمعوا فيما عند الله من ثوابه ، فقالوا : يا نبي الله ، إنا نطمع أن تكون غزوة ، ولا نعطي فيها أجر المجاهدين في سبيل الله ، فأنزل الله فيهم : ﴿إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم﴾ . ومن هنا نعلم ، أن الشهور الحرم هي التي حرم الله فيها القتال في الإسلام ، كما كان محرماً من قبل إذ قدسها العرب عن أن يراق فيها دم آدمي ، فالتزموا بما تعارفوا عليه ، وما أقدم عليه عبد الله لم يكن مخالفة لأمر رسول الله ﷺ إذ لم يتبين له دخول الشهر الحرام - رجب وغلب على ظنه ومن معه أنهم في نهاية جمادي الآخرة ، فلم يتعمد استحلال الشهر الحرام ، أو أن القتل كان في نهاية جمادي الثانية والقتيل لقي مصرعه في أول رجب ، فلم يستحل الشهر إذن والآية الكريمة تقرر أن القتال في الشهور الحرم إن كان كبيرة ، فأكبر منه ما أقدم عليه المشركون من صدهم المسلمين عن البيت الحرام كفراً وعناداً ، وأكبر منه إخراج أهل الحرم منه ، وأكبر من القتل الفتنة التي أرادوا إشعالها برد المسلمين عن دينهم ، فالمسلمون إذن لم يبدأوا بقتال ولم يبادروا بعدوان ، ولكن المشركين كانوا هم البادين ، بانتهاك حرمة البيت الحرام في الشهر الحرام فلم يراعوا حرمة هذا الحرم الآمن ، وما إخراج أهله منه إلا أمر أفضح جرماً من القتل فيه ، وما فتنة المسلمين عن دينهم إلا أشنع من القتل .

لقد ارتكبوا الجريمتين معاً ، فلم يعد لهم الحق في التمسح بحرمات الشهر ،
إنها كلمة حق أريد بها باطل لقد أرادوا تشويه موقف المسلمين ، وإلصاق تهمة
التعدي بهم .

ذلك لأنهم قوم طغاة ، لا يحترمون مقدسات ، بينما يرمى الإسلام
حرمات من يرعون الحرمات ويأتي دور اليهود ، وتتهياً لهم الفرصة ، إذ أخذوا
ينفثون سموم الفتنة بين المسلمين والقرشيين لقد أشاعوا كاذبين أن محمداً
يستحل الحرمات ، وأطلقوا أبواق دعايتهم المضللة ، ونشروا أراجيفهم الماكرة ،
في كل مكان ، ليظهروا محمداً وأصحابه بمظهر المعتدين ، حتى نزلت الآية تفصل
في الموقف ، وتخرس السنة المرجفين في الأرض ، المؤججين نار الفتنة . إنهم
اليهود ، يهود الأمم هم يهود اليوم في كل مكان ، وفي كل زمان .

لقد بين القرآن الحقيقة السافرة ، وأرسى القاعدة الثابتة ، وثبت بالحق
أقدام المؤمنين ، وفضح أساليب الغدر ، وأفانين الفتن في قلوب أعدائهم فقال
جل وعلا ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ .

إنه إصرار خبيث على الشر والفتنة ، إصرار ينطق بالبغضاء للمسلمين ،
ولهذا الدين الذي هدد سلطانهم ، الدين الذي جاء حرباً على باطلهم وبغيهم
وفساد عقيدتهم ، فكانوا حرباً عليه لأنهم أعداء الخير حلفاء الشر ، أعداء
النور ، هواة الظلام ، لقد كان هدفهم أن يردوا المسلمين عن دينهم إن
استطاعوا ، ولكن أرى لهم ذلك ، والله يحذر منهم ، وينبه المسلمون أن
يحذروهم بقوله تعالى في نهاية الآية ، ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه وهو كافر فأولئك
حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ومن ذا الذي يرتد عن الإسلام ، وقد ذاق حلاوته ، وتفتحت عيناه على
نوره إن تحذير الله في هذه الآية للمسلمين من النكوص بعد الاستقامة ، على
الطريق ، طريق الإسلام ، قائم إلى آخر الزمان ، فكيف يكفر بالله من هداه الله
إلى الحق - إلى الخير إلى الفلاح ، وصدق الله ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط
مستقيم ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية :

* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ

[البقرة ٢١٩]

لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَأَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا

القصة :

يرويه ابن مسرة بقوله .

إن عمر بن الخطاب قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل على رسول الله ﷺ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ، وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ، فدعا عمر فقرئت عليه ، ثم قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ، فدعا عمر فقرئت عليه ، ثم قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَتَّهِنُونَ﴾ فدعاه ، فتليت عليه ، فلما بلغ : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَتَّهِنُونَ﴾ قال عمر : انتهينا .

وكانت تحدث أشياء لرسول الله ﷺ بسبب شرب المسلمين الخمر قبل تحريمها منها قصة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مع حمزة رضي الله عنه ، وهي التي أخبر بها علي بن الحسين رضي الله عنهما عن جده كرم الله وجهه أنه قال : كانت لي مشارف من نصيبي من المغنم يوم بدر ، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخمس ، ولما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ كنت ادخرت شارفين فبينما أنا أجمع لشارفي وهما مناخان جنب حجرة

رجل من الأنصار، فإذا بشارفي قد بقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما ، فلم أملك نفسي حين رأيت هذا المنظر أن قلت : من فعل هذا ؟ فقالوا فعله حمزة ، وهو في البيت في شرب من الأنصار.

قال علي: فانطلقت حتى دخلت على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة ، قال: فعرف رسول الله ﷺ الذي بي فقال: مالك، قلت: يا رسول الله ما رأيت كالיום، عدا حمزة على ناقتي وبقر خواصرهما، وهو في بيت يشرب، قال: فدعا رسول الله ﷺ بردائه ، ثم انطلق يمشي ، فاتبعت أثره أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هو فيه، فاستأذن فأذن له ، فإذا هم يشربون، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال: وهل أنتم إلا عبيد أبي ، فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنقص على عقبيه القهقري، فخرج وخرجنا، وكانت هذه القصة من أسباب نزول آية تحريم الخمر .

ومن هنا نعلم أن القرآن الكريم في تناوله هذا الحكم المتعلق بعبادة اجتماعية مألوفة قد تناولها بأسلوب يتمشى مع روح الإسلام، عندما يعالج ظاهرة انحراف، إذ بدأ بتحريك الوجدان الديني في النفوس، ببيان ما في الخمر من إثم ونفع ، ثم بالإرشاد إلى أن الإثم طاغ على النفع ، تمهيداً للنفوس على التفكير في الإقلاع عن شربها، ثم كانت الجرعة أقوى إذ حرمها، حرم أن يدخل الصلاة سكراناً وحينئذ لا يجد الشارب فرصة للإفاقة من سكره لأن أوقات الصلاة متقاربة ، لا تسمح للسكر والإفاقة منه قبل دخول وقت الصلاة ، وهو بالضرورة مضطر إلى تركها ، لتصح صلاته، ثم كان العلاج حاسماً، وكان الأمر قاطعاً بعد أن مهدت لتقبله النفوس، فحرم الله شربها وأمر باجتنابها لأنها رجس من عمل الشيطان ولا يليق بالمؤمن أن يأتيه ، وبالتالي أن يتناولها ، ثم كانت الثمرة على الامتثال مغرية بقوله تعالى: ﴿لعلكم تفلحون﴾، وهذا حضٌّ على الفلاح في أمر دينه .

وإن هذا التشريع الحكيم في التدرج بالحكم المحرم للخمر، كان مسaire

مع ما درج عليه المسلمون في جاهليتهم، وإلى ذلك الحين لم يكن التنزيل القاطع قد نزل به الوحي بعد، حتى أن مدمنيها قبل التحريم حينها حرمت أهرقوها حتى سالت بها الأودية .

لقد أراد بهذه التربية، تربية المسلمين ألا يصددهم في مألوفهم دفعة واحدة بل أخذهم باليسر والرفق خطوة خطوة، حتى تنهياً الظروف المناسبة للتنفيذ والطاعة فقد كانت عادة متأصلة، والعادة تحتاج في الإقلاع عنها إلى علاج، علاج لمرض اجتماعي عتيدي؛ فقد كانت سموم الخمر سارية في عروق العرب قبل الإسلام، وكان شربها شغلهم الشاغل إذ كانوا في فراغ ذهني، لا يجدون مجالاً لنشاط إلا معاقرتها .

وكان أن بدأ القرآن في علاجه لهذه العادة المتأصلة أن بين أولاً ما فيها من إثم ونفع إثم يتلاشى بالنسبة إلى نفعها، ثم ما هذا النفع الذي فيها؟ إنه نفع دنيوي عائد من تصنيعها، وبيعها، وهو لا شيء إذا ما قيس بما تجره من أضرار وفساد، ويكفي أنها مذبذبة للعقل، مهلكة للمال، وما أحسن ما قاله ابن الفارض .

واترك الخمر إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من غفل .

ثم كان الأمر بتحريم السكر عند الصلاة، ولا يخفى أن ما بين الصلاة، والصلاة لا يكفي لسكر وإفاقة، فضيق الأمر الكريم دائرة الإقدام على شربها، إلى أن كان النهي القاطع بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ، وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾. إنه المنهج القرآني الحكيم، الذي يراعي طبيعة الإنسان، حين يأخذه بالرفق، ولو كان الأمر متعلقاً بعقيدة لما كان كذلك، ولكنها الحكمة، حكمة الله العالم بالنفوس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية :

يقول الله تعالى في سورة البقرة :

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
[البقرة : ٢١٩ - ٢٢٠]

القصة :

يرويه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :

إن نفراً من الصحابة ، حين أمروا بالنفقة في سبيل الله ، أتوا النبي ﷺ فقالوا : إنا لا ندري ما هي النفقة التي أمرنا بها في أموالنا ؟ فما ننفق منها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ .

ويقول ابن أبي حاتم ، أن معاذاً وثعلبة ، أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله ، إن لنا أرقاء وأهلين ، فماذا ننفق عليهما من أموالنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ .

وبعد : فقد سألوا النبي ﷺ من قبل عن النفقة ، وكان جوابه عليه الصلاة والسلام لهم ، عن النوع والجهة حين سألوهم ﴿يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فلوللدين والأقربين﴾ .

أما هنا ، فقد ذكروا في سؤا لهم الجهة ، وجهلوا المقدار ، فكان الجواب القرآني الكريم لهم بالعفو: قل العفو ، والعفو هو الفضل والزيادة ، وكل ما زاد عن نفقة الإنسان من غير إسراف ، وفي غير معصية أو رفاهية ، فهو محل للإِنفاق .

يقول الحسن رضي الله عنه في تفسير هذه الآية : ألا تجهد نفسك ، ثم

تقعد تسأل الناس، يؤيده ما رواه ابن جرير عن أبي هريرة بقوله :

قال رجل: يا رسول الله ، عندي دينار قال: أنفقه على نفسك، قال: عندي آخر قال: أنفقه على أهلك، قال: عندي آخر: قال: أنفقه على ولدك ، قال: عندي آخر: قال: فأنت أبصر وفي رواية جابر بن عبد الله الانصاري قال: إن رسول الله ﷺ قال لرجل يسأله عن الصدقة (ابدأ بنفسك، فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذوي قرابتك ، فإن فضل عن ذوي قرابتك شيء، فهكذا وهكذا).

ومن هنا نعلم : أن الآية الكريمة قد قيدت الإنفاق بما زاد عن حاجة الإنسان حتى لا يجرم نفسه ويتصدق ، فإن كان لديه فضل مما يتصدق ، فالصدقة خير، والإمساك شر لقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : (إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف).

وإذن: لا نفقة إلا بعد كفاية ، يؤديها المسلم طيبة بها نفسه، قاصداً بها الفوز بمرضاة الله وهذه الآية لم تنسخها آية الزكاة، ولم تخصصها، فالزكاة تظل معلقة بذمة من وجبت عليه حتى يؤديها، أما الآية فتوجه المسلمين إلى الإنفاق، لأن الزكاة حق معلوم للسائل المحروم، أما النفقة المقصودة في الآية، فهي صدقة التطوع ، لأنها من الفضل، وهو محل الإنفاق، والزكاة قد لا تستغرق الفضل .

وتختتم الآية الكريمة بالدعوة إلى التفكير والتدبر في أمر الدنيا ، بتدبير المعيشة ، وفي أمر الآخرة بتقديم الخير المدخر لها، ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾، في الدنيا والآخرة. ﴿إنها دعوة تستثير في المسلم مشاعر التدبر في أمر دنياه وأخراه ، فالإنسان حين يحرص تفكيره في دنياه فحسب ، فإنه لا يضع تصوراً دقيقاً، للموازن السليمة فالدنيا شطر الحياة ، ولكنها الشطر الأقصر، أما الآخرة فهي شطر الحياة الأطول والأبقى﴾ ﴿وإن الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾.

إن التعلق بالقصير الفاني، مع الغفلة عن الطويل الباقي منهج غير سليم

وسلوك غير قويم، والدعوة إلى الإنفاق دعوة إلى مراعاة الشطرين، فما ينمص بالنفقة يرد بالتزكية في نفس المنفق وبالنماء والطهر والبركة في ماله .

إن الإسلام لا يغفل حقيقة الحياة، بما فيها من التزامات، فكان لا بد من الإنفاق مع الموازنة بين ما تستلزمه الحياة من تدبير معيشة، وما يجب أن يدخر للآخرة من تقديم الخير والبر والعون والإنفاق وهنا ترجح كفة الإنفاق، لما فيه من عائد مضمون على المنفق، ثم هو فوق ذلك من أسباب إصلاح المجتمع، ووضع لبنة الأمن في بنيانه، فبها يمحي حقد الفقير، فلا حسد، ولا كراهية، وتزكو نفس الغني فلا أثره ولا أنانية، ولكنه التعاون والتراحم والمساواة بين أفراد المجتمع أغنياء وفقراء؛ ثم هي في الآخرة زاد، أبقى وأنفع للإنسان، حين يجاء بماله ويسأل عنه فيقع في حيرة ولا يجد جواباً .

أما ما يقدمه في دنياه فهو دفاعه وحجته وذخيرته .

إن استشعار المسلم هذا المعنى، يدفعه إلى الإنفاق عن طيب خاطر مطمئناً إليه نفسه، مستريحاً إليه ضميره، فلا تحدثه نفسه بشح، أو يدفعه خوف الفقر إلى أن يظن بماله إن القرآن الكريم حين يدعو إلى الإنفاق، فلأن الله يضاعف الأجر، يضاعفه بلا عد ولا حساب، وهناتمضي موجة البذل، مسابرة موجة النماء في طريق واحدة إنه غرس وثمار، زرع وحصاد، بذل وعطاء ﴿والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ إن الصدقة خير عائد على المتصدق، وبركة في ماله، كما أنها وفاء بحق النعمة، وشكر للمنعمة وتعاطف مع إخوانه، به تسمو المشاعر، وترق العواطف .

بسم الله الرحمن الرحيم .

الآية :

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْنَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ
[البقرة : ٢٢٠]

القصة :

يرويه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله :

لما أنزل الله عز وجل قوله : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ ، وقوله : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ ، انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه عن طعامه ، وشرابه عن شرابه وجعل ينفي الشيء من طعامه ، فيجلس له ، حتى يأكله أو يفسد ، واشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح﴾ . قال : فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم .

إنه سؤال جديد، بعد ما سألوا عن الأهلة ، وعن الشهر الحرام وعن الإنفاق ، وعن الخمر والميسر نجدهم يسألون عن اليتامى ولم ؟ إن الإسلام قد رب فيهم ضمائر يقظة ، فتراهم يتخرجون من الاقتراب من مال اليتيم بعد أن سمعوا قوله تعالى ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ ، وذلك خشية الوقوع في المحذور ، الذي حملته الآية ، وحرصاً على تنفيذ أمر الله في اليتامى ونهيه عن تبديل الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى الذين تحت وصايتهم أو ولايتهم وحتى لا توجه إليهم أسهم الاتهام باستغلال مال من هو أضعف من حماية نفسه ، والدفاع عن ماله ، إذ كان سلوكهم مع اليتامى غير مقبول ، وإننا لنجد سعيد بن المسيب يقول في معنى قوله تعالى : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾ ، يقول : لا تعطمهزولاً وتأخذ سميناً ، كما يقول الضحاك : لا تعظ زيفاً وتأخذ جيداً ، هذا لأنهم كما يقول السدي : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد ، ويطرح مكانه الزيت ويقول : درهم بدرهم .

هذه نزعة الجشع في النفوس ، النفوس التي لم يهذبها أدب الإسلام ، نزعة كل البشر ، مالم ينظم حياتهم دين ، كان قويمهم يأكل ضعيفهم ، وجاء الإسلام ،

فأرسي قاعدة التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع قويمهم وضعيفهم ، فساد التعاطف بينهم ، ورقت مشاعرهم ، وسمت عواطف الخير فيهم ، فكانوا حريصين على السؤال عن كل ما يحميهم من الزلل والانحراف، ليسيروا على هدى وبصيرة في حياتهم وسلوكهم، لقد أدركوا أن بينهم ضعافاً ، فقدوا المعين، وحرموا الحنان حنان الأبوين، فكانوا بقلوبهم المؤمنة ميدان عطفهم، ومصدر الحنان لهم، وكانت رحمتهم بهم مظهراً عملياً، ينم عن حقيقة إشاعة هذه الروح الإنسانية في قلوبهم .

فاليتم الذي فقد منذ نعومة أظفاره من يقف بجانبه، أولى بعناية المجتمع به ورعايته له، عناية وليه به تهذيب نفسه ، ورعايته لماله، بالحفاظ عليه وتنميته . وكانت الوصاية على أموال اليتامى اختباراً لقوة إيمان الأوصياء، وعفة أيديهم ، وطهارة قلوبهم، وكانت ظاهرة خلط أموال اليتامى بأموال الأوصياء لاستثمارها أمراً طبيعياً ولكن مصعد خطر، ومحك لطمع النفوس أو نزاهتها، وكثيراً ما كان الغبن واقعاً على اليتامى، لذا نزلت الآية الكريمة لتحديد العلاقة، وتضع الحدود التي يجب أن تراعى، وكان التحذير من أكل أموالهم ولو من غير قصد حازماً، فكانوا أمام أحد أمرين : إما أن يعزلوا أموالهم عن أموالهم الخاصة، وفي ذلك حفاظ على مال اليتيم، أو يخلطوا أقواله بأموالهم ، وفي ذلك تنمية له ومصلحة وهنا تتدخل الضمائر المؤمنة ، وتقف التقوى حائلاً دون الوقوع في المحذور، حين ينال أموال الأوصياء من أموال اليتامى شيء .

وكان الأحوط لهم العزل، فعزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، وبالغوا في الاحتياط، فعزلوا طعامهم عن طعامهم، وشرابهم عن شرابهم، حتى كان الواحد منهم يرعى يتيماً ، فيقدم له من أمواله الطعام ، فإن بقي منه شيء لا يقربه ، بل يتركه له ، ليأكله، أو يدعه يفسد. وكانت هذه الظاهرة في نظر الإسلام غريبة، إنها نزعة تشددية والإسلام دين وسط يدعو إلى التوسط في الأمور، واليسر في تناولها ، فالإصلاح لليتامى أولى من اعتزالهم ، ومخالطتهم إن كان فيها نفع فهي خير.

إن الوصي بمنزلة أب اليتيم ، ولن يقبل أب أن يأكل مال ابنه بالباطل ،
كما لا يسوغ له أن يعتزله ، فيشعره بمهانة تكسر خاطره، وتجرح مشاعره وينكأ
بها جرح قلبه إذ يحس أنه منبوذ ، بل أولى به أن يحتضن ويغمر بعطف .

إن الله يعلم المصلح من المفسد، فهو مطلع على النيات ، وحيث حسنت
النية فلا عبرة بالظاهر إن الله لا يريد لعباده عنتاً ولا حرجاً، ولا يشق عليهم بما
لا يستطيع من التكليف ، إنه عزيز قادر على ما يريد، حكيم لا يريد لعباده إلا
الخير واليسر والإصلاح ؟